وليد إخلاصي

رحلة السفرجل

حكاية



رحلة السفرجل

وليد إخلاصي

رحلة السفرجل

حكاية



The Trip of Quinces
A Story

Walid Ikhlasi

First Published in August 2008

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 392 - 5

الطبعة الأولى: آب (أغسطس) ٢٠٠٨

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: نايلا يحيى
(محترف بيروت غرافيكس)

1

كانت الدقائق الأولى التي مرت على (مُعين السفرجل) في بدايات استيقاظه المتقلبة، مدخلاً لإدراكه أن شيئاً ما يحدث في الدار، شيء لم يحدث مثله من قبل. واستطاع بعد قليل أن يحدد مصدر الاضطراب، فالذي حدث هو خلل ما في الجهاز القائم في غرفة المعيشة. وكانت المجموعة التي تضم المسجل قد بُرمجت لتنطلق الموسيقى في السابعة من صباح كل يوم إيذاناً باستقبال نهار جديد، وبذا أصبح المسجل جهاز توقيت منتظم اعتمدت عليه ساعة الانطلاق إلى العمل، وظلت كذلك بعد أن بات متقاعداً، فلم يتغير نظام استيقاظه.

في البداية، استوى في جلسته، وقد رفع الغطاء القطني عنه، وهو يستمع إلى ترنيمات البيانو الهادئة كأنامل امرأة تداعب شعره،

فتمطى، وما لبث أن أغمض مبتسماً وكأنه يسبح في بحيرة الكونشرتو التي ملأت فضاء الغرفة. وتوقفت الموسيقى فجأة عند لحظة هادرة عندما تحول المسجل إلى بث قراءة من آيات القرآن الكريم يرتلها الشيخ مصطفى إسماعيل الذي لم يكن ليرضى منها بديلاً في التجويد، يستمع إليه قبل النوم أحياناً، وفي فترة الاستيقاظ بانتظام. وأدرك معين أي ارتباك يحدث في بيته الذي يمضي فيه الوقت وحيداً منذ أيام طويلة. وجعل يفكر ببطء في سر ما يحدث إن كان جانباً من أحلام النوم أو أنه خلل عجيب في الجهاز!

ورمى بالغطاء خارجاً من السرير باندفاع، في اللحظة التي انطلقت فيها أغنية لأسمهان أحبها لحديثها عن الجنة التي كان يخيل إليه دوماً أنها الجنة. وكان الوصول إلى صالة المعيشة لا يأخذ أكثر من دقيقتين أو أقل، إلا أن ساقيه لم تساعداه على التقدم، فظلّ واقفاً في مكانه وهو يتساءل إن كان الجهاز الذي يعتز به لصفاء صوته قد ابتلع كمية من الأشرطة يتوالى بثها لاهثاً يستعرض ما تجمع لديه من مختارات قضى معين زمناً في جمعها، أم أن الراديو يتنقل مؤشره بخفة بين المحطات معلناً عن حرية مزاجه في الاختيار. واستبعد بحزم أن يكون أحد قد عبث بالجهاز، فالدار لم تطأها قدم غيره منذ أيام. وتماسك أخيراً مسيطراً على نفسه، فتحرك باتجاه غرفة المسجل عبر الممر الضيق الذي يفصل غرفة النوم عن بقية الدار، وما إن اقترب من المجموعة حتى انطلقت أغنية لصباح فخري، وكأن كلماتها (يا مسعد الصبحية) تعطي يومه مفتاحاً لبداية مختلفة، فما كان من السفرجل إلا أن قطع الكهرباء عن الخزانة الزجاجية التي جمعت الراديو والمسجل مع جهاز التلفزيون، ومن ثم أعاد الكهرباء إلى المجموعة، فساد صمت وتوقف فعل الأشرطة أو الراديو ولم يعد هناك أي صوت، فقال لنفسه:

«أية أوهام، أية أحلام تشاركك عزلتك؟!».

وتساءل إن كان في يقظة أم أنه مازال غارقاً في النوم.

ولم يكن التدخين المبكر من عادة مُعين السفرجل، إلا أنه وجد أن السيجارة المشتعلة قد تخفف شيئاً من الاضطراب الذي ابتدأ مع ارتمائه على مقعده المفضل أمام باب الشرفة المطل على الشارع، وقد ظهرت له العمارات المقابلة يرفرف على واجهاتها الغسيل وكأنه قطع ملونة أشبه بالأعلام التي قد تكون رفعت من أجل احتفال ما. وكان يستعيد من جديد تلك الدقائق المشوشة التي مرت عليه دون إنذار كما الأحلام التي يراها كثيراً في نومه. إلا أن حياة الشارع اليومية في حركة الناس والسيارات ونداء الباعة وبريق الشمس التي تتمدد ببطء في مساحة الفضاء، كانت قد بدأت، فخرج إلى الشرفة يستطلع فضاء المدينة الذي قد يخفف عنه وطأة التشوش الذي طغى عليه مع بداية يوم آخر كهذا، فكان لبريق الضوء أثرٌ عليه.

وارتد معين إلى الداخل كأنه يريد لعينيه أن تنقلا شيئاً من طمأنينة السماء إلى الداخل، فالتقى بالصورة المعلقة على الحائط ليجمد عندها كطائر وجد عشه فهمد. وكانت الصورة التي طالما اعتز بها تظهره في المكتب عندما كان مهندساً معمارياً في (مؤسسة الأبنية المدرسية) وهو يقف إلى جانب هيكل خشبي لبناء مدرسة قام بتصميمه ولم ينفذ. وكانت نوافذ البناء العارية كأفواه جائعة فتحت لتسخر من نفسها لأنها لم تقدر على أن تكون حقيقية فبقيت دمية تزين مكتباً هندسياً. ومشى متجهاً إلى الصورة التي غزا سوادها اصفرار لم يلحظه من قبل، كأنها أخذت في عصر فوتوغرافي قديم، فحدّث السفرجل نفسه:

«ماذا حدث لها، فالصورة ليست قديمة ما يكفي لاصفرارها، وها

هو الشيب يلون شعر رأسي فيها!».

وهمس بصوت مسموع:

«بات الزمن سريع التأثير في الأشياء التي تخصني».

وكانت غرفة المعيشة مربعة الأضلاع، فوقف السفرجل في مركزها يطوف بعينيه على المقاعد التي كشف له الضوء تعتق خشبها كما أصبح مخملها باهتاً، وتساءل:

«متى حدث كل هذا يا إلهي؟».

وها هو يستذكر الشهور التي مرت عليه منذ إحالته على التقاعد. أيام شتائية، أسابيع قليلة من ربيع لاهث نحو صيف متربص، وها هي الأيام الخريفية، أيام متشابهة، صباحات ومساءات أشبه بكرة الطاولة تنوس بانتظام بين لاعبين، فتوقفها الشبكة فجأة، فلا تلبث أن تعود إلى تناوب لا يعرف متى تتوقف اللعبة عند لحظة انتصار واحد من المتصارعين. وعاد إلى الجدار يتأمل الصور التي ملأت معظم مساحته، فكانت هناك صورة قديمة للأسرة في بداية تكونها. معين السفرجل شاباً يحتضن الابنة البكر (خديجة) وهي في السابعة، يرتسم على وجهها الجميل حزن طغى على بهجة أختها الأصغر (عائشة) التي التصقت بأمها (فاطمة) بدلال لازمها في شبابها، بينما (صفية) الابنة الأخيرة كادت أن ترفرف بأجنحة غير مرئية تريد أن تحلق عالياً، وجاهدت الأم أن تسجل ابتسامة واسعة لكنها لم تفلح بالرغم من اكتمال أسرة وقفت على أرض من السعادة التي حاصرها إطار الصورة الخشبي. وجعل معين يمسح زجاج الصورة بطرف كم البيجاما، وقد حسب أنه يرى الوجوه باهتة قليلاً كأنما خرجت لتوها من قبو رطب للذكريات، وتكرر

تنظيف الزجاج كأن السفرجل يريد أن يبعث الحياة في مرحلة انقضت، إلا أنه توقف وهو يقول:

«الذكريات تبقى كما هي، وأنا الذي كتب عليه أن يتغير».

وكانت الصور الفوتوغرافية الأخرى التي تشغل حائط الغرفة قد شكلت مع الأيام خزانة لتاريخ مضى، وقد تأكد من أن جميعها قد أصيب بشحوب وفقد بريقه القديم، فما عادت تضفي على المكان بهجة ماضٍ لذكريات كثيرة. وكانت صور البنات الثلاث في شبابهن تشكل سلسلة متتابعة الإيقاع، خديجة مع ولديها الفتيين كشجرتين تعدان بثمار قادمة، والزوج من خلفهم يحتويهم بأناقة ملابسه العسكرية. وكانت صورة عائشة مع أسرتها تثير حزنه، فقد وقفت مع بناتها الثلاث وراء الزوج الذي لم يمنعه شحوبه من افتعال ابتسامة لم تتأكد، وبينما ظهرت الصغيرات واجمات كأنهن يعجزن عن إخفاء القلق على أبيهن، كانت عائشة تحاول أن تمثل تمسكاً بأمل شفائه، فلمع دعاء في عينيها أضفى على الصورة وداعة تخلب القلوب. ولم تمض أشهر على تاريخ الصورة حتى خطف السرطان زوج المحبة. وهمس السفرجل وهو ينقل بصره بين أفراد الأسرة المفجوعة:

«هل لإنجاب البنات علاقة بالموت المبكر؟!».

إلا أنه أشاح بوجهه مقطباً لينتقل إلى صورة صفية مع زوجها التقطت لهما يوم الفرح الأول، وقد ملأ عينيها وميض سعادة لم تكن صفية لتحسب مداها، فقد تحول إلى قلق عبر السنوات التي تمر بانتظار ولد يبدو أن الأسرة الصغيرة لن ترزق به.

«هل العقم يحفر عادة بمخالبه في أرض المحبة ليستخرج التعاسة؟».

ولم تستطع إطارات الصور التي صنعها السفرجل بنفسه قادرة بتذهيبها على إضفاء الوهج الذي قدّر أن تفعله للصور التي كانت أيقونات الدار حقاً. وتحولت لحظات الماضي المتجمدة في الأبيض والأسود إلى مساحات يتساقط عليها الرماد كغمامة رابصة، إلا أن الصور ظلت رغم ذلك تدل على نفسها من خلال هلام يشفّ. وعاد إلى نافذة الشرفة يفتح فرجة منها وهو يستعيد كل ما يحدث له منذ البداية فلا يستطيع لها تصديقاً. واستقبل برودة الخريف المبكرة فلم يرتعش لها جسده، وتأمل الشارع الذي بدا خاوياً في تلك اللحظة على غير ما كان عليه منذ قليل، فارتد إليه الفراغ وهجاً خفيفاً لتجتاحه رعشة خاطفة أعادته إلى مقعده كي يعيد تنظيم تفكيره.

كانت فاطمة قد سافرت منذ فترة إلى ابنتها عائشة التي اختارت البقاء في مدينة زوجها الراحل، وكان عملها مدرسةً في (الحسكة) وارتباط بناتها بالحياة فيها قد شدّاها إلى الاستمرار هناك بعيداً عن أهلها، فكانت الأم فاطمة تكرر زياراتها الطويلة لمساعدة ابنتها وأسرتها والتخفيف عنها في أعباء الحياة، وقال معين لنفسه:

«لا بد من بقائي هنا لأكون قريباً من خديجة وصفية. هما بحاجة إلينا أيضاً».

«والأحفاد بحاجة إلى العائلة، وصفية في قلقها أليست ضعيفة تتطلع إلى من يقف معها؟».

وتساءل السفرجل وهو يرمق الصورة ويتأمل وجه صفية في لباس عرسها:

«لا يليق العقم بالحب الذي جمعها مع زوجها. لا يليق الحزن بحب

جميل كهذا!».

ولطالما قال لزوجته وهما يتسامران:

«ليس عدلاً ألا تكرر صفية نفسها في أبناء يعيشون في كنف حب سعيد، فمثلها يجب أن يغني الحياة ببراعم مثلها».

وعائشة، يا لعائشة المسكينة! أرقُّ النساء، المحبوبة التي لا يليق دلال إلا بها. تزوجت زميلاً لها في الجامعة، وابتدآ يعلمان الإنكليزية وينجبان السعادة والبنات اللواتي تشرّبنها ليتحولن إلى زهرات جميلة في حقول قمح الحسكة. وانقطع حبل السعادة، فتحولت رقة عائشة إلى صلابة بدوي يصارع رمال الصحراء وحيداً، ولم تصغ إلى الدعوة المرتجاة في أن تعود إلى حلب لتكون في حضن أهلها مع البنات، وقالت بقرار قاطع حوّل الحزن المقيم إلى إرادة قاسية:

«ومن يضع الزهور على قبر زوجي الحبيب؟».

وأطرق السفرجل متنهداً، فظهر له بلاط الغرفة كسجادة قديمة يتجمع الغبار في شقوقه. فحدّث نفسه:

«المرأة مهمة حقاً في الدار، سيغطي الغبار كل شيء إذا طال الغياب».

وضرب الأرض بقدمه كأنه يهش عنها الغبار، فتبين له أن حيويته قد استيقظت وبدأت بالعودة إليه، فقام إلى المطبخ يستنجد بحليب الصباح الذي يفتتح يومه عادة به. ودبت الحركة في المكان فاشتعلت النار، وتأمل بياض الحليب الذي ملأ الفنجان فكان كصفحة خالية أعادت إلى قلبه الطمأنينة. وابتدأت اللحظات السابقة في التسابق إلى غياب، وأحس كأن شيئاً لم يحدث، وأن

أفكاراً ما لم تخطر له، وأن صباحه قد ابتدأ الآن، فحمل فنجانه عائداً إلى الغرفة بخطوات متوازنة الهدوء.

وشغله البحث في الراديو عن أخبار الصباح، لكنه توقف في تقليبه للمحطات عند واحدة كانت تبث حديثاً لرجل شدَّ الانتباه إليه وهو يتكلم مندفعاً كخطيب شعبي عن قوة الإيمان والإرادة في تخطي الصعوبات التي تواجه الإنسان في الزمن الصعب الذي لن يثني تقلبه عزيمة الإنسان، وكان الصوت مشحوناً بقوة بلاغة أثقلت على السفرجل، فانتقل إلى محطة أخرى تصدح بأغنية رائجة يغلب الإيقاع فيها على معاني الكلمات التي لم يلتقط الكثير منها، فأغلق الراديو عائداً إلى فنجانه، فإذا بالحليب قد برد وابتدأ سطحه بالتجعد ليصبح كوجه عجوز، فقال لنفسه:

«ما الحكاية في يومك هذا؟».

وشعر السفرجل بالصباح يتمدد بعيداً، وأن عليه أن يعود إلى نظامه اليومي، فتلمس وجهه، فعلم أن وقت الحلاقة قد تأخر عن عادته. توجه إلى الحمام ليشاهد نفسه في المرآة التي تآكلت حوافها، إلا أنه أطال تفحص وجهه كأنه يدرس مخططاً يعدّه لبناء يريد تصميمه. الخطوط الخارجية للمساحة لم تتغير، والأذنان كحارسين يقظين أمام أي احتمال لانكماش أو تهدل، إلا أن التفاصيل الصغيرة أدهشته، فشعر الذقن يبدو كأنه لم يمس منذ أيام وقد تصارع فيه الشيب مع بقايا شعيرات سود، والهالتان اللتان أحاطتا بالعينين أظهرتاه كمن فقد النوم لزمن، فامتدت كفه تفرك سطح المرآة وهي تحاول أن توقظ لمعانه، إلا أنه مع كل ذلك صمّم على متابعة طقسه المألوف.

وعندما ارتدّ إلى غرفة النوم، لم يقم بترتيب سريره، بل تمدد عليه

مسترخياً كعائد من رحلة شاقة يتطلع إلى الراحة، إلا أنه وهو يحدق في السقف لمح رطوبة تجمعت في بقع تناثرت على مساحته. كانت هي المرة الأولى التي يرى السفرجل فيها شيئاً كالعهن يلتصق بحدود فضاء الغرفة التي تظلله. عادت من جديد الأحداث السابقة تصر على استمرار غرابتها، فأغمض يريد أن يحول الوقائع إلى أحلام يتخيلها، إلا أنه عجز عن فعل ذلك. وتصاعد رنين في أجواء البيت، فغطى رأسه بالمخدة تفادياً لضجة مفاجئة، ولكنه بعد لحظات عرف أن الهاتف هو الذي يستدعيه، فنهض مسرعاً نحوه ليسكته. وجاءه صوت صفية مداعباًكما تعوده دوماً، فتراخت أعصابه، وبثها أشواقه كأنه لم يسمعها منذ زمن، وهي التي تفتتح يومها في الوظيفة بحديث يحمل حبها واشتياقها، وقد تلجأ أحياناً إلى بث شكواها من عدم ممارستها الفعلية للمهنة التي تشترك فيها معه وتعتبره العزاء الذي يخفف عنها. وكانت في هاتف اليوم تدعوه إلى أن يشاركها العشاء لدعوة من زوجها إلى مطعم هادئ بمناسبة منحه مكافأة من الشركة الفرنسية التي يعمل مستشاراً قانونياً لها، فوجد السفرجل نفسه يعتذرُ دون إرادة منه، متعللاً بارتباطه المسبق بصاحب مكتب هندسي تعوّد أن يقدم له الخدمات بين فترة وأخرى.

وعندما بات وحيداً، وقد فارقه صوت صفية الأعذب من أية أغنية يحبها، أحس بندم على رفضه وبقلق لحرمانه من لقاء الزوجين العاشقين بالرغم من مرور السنين. وكانت صفية قد التحقت بكلية العمارة تيمناً به، وهو الذي ظلّ مثلاً أعلى لها، إلا أن عملها في مديرية السياحة لم يسمح لها بأن تمارس عملاً جاداً له علاقة بالتصميم الهندسي فيتحقق الطموح الذي تمثل لها في حياتها. مثلها كان الكثير من المهندسين وقد وزعوا على الإدارات والمؤسسات لتصبح واقعة تسلُّم الراتب الشهري عادة لا يقابلها عمل يذكر.

واشتعلت سيجارته الثانية، فكان دخانها يعيده إلى الأيامِ المتسارعة في عودتها إلى الوراء كروزنامة تتقلب أوراقها متراجعة. في السنوات الأخيرة من عمله الوظيفي اشتدت عليه محاسبة الزمن:

«ما الذي فعلوه بك؟».

وتفتحت سجلات مراجعة النفس:

«ما الذي قدمته يا معين السفرجل؟»

وهتف في الغرفة كمن يخاطب جليساً:

«أهي لعبة القدر الساخرة، أم أنه العقاب المكتوب؟».

في مرحلة الشباب كان طالب المدرسة الثانوية يتخيل أن الحياة طويلة، وقد لا تنتهي، شأنها في ذلك كحبل سيمتد أمامه إلى ما لا نهاية ما دام يتقدم في دراسته ويقبض على الأحلام بأسنانه، ولم يكن هناك احتمال لتخيل صورة لشيخوخة تأتي أو أنها تصيبَ أمثاله من المصابين بحمى الشباب الذي عهد إليه أن يمضي بعيداً في درب طويل طويل.

انقلب الشريط على نفسه، فعاد إلى واقعه خائفاً من المضي في تذكر البدايات. وانتفض السفرجل في مقعده وهو يتمتم:

«الآن عرفت».

وهكذا بات المتقاعد يدرك أن الحياة قصيرة حقاً، وأنها لم تكن كافية، وأن الشيخوخة ليست سوى عتبة يتخطاها فتكون النهاية. صاح السفرجل فجأة:

«ومتى كان التقاعد من الوظيفة هو النهاية؟».

ثم قال وهو يقطع المسافة بين جدار وآخر:

«ما من بداية إلا ولها نهاية».

النقطة تلد عادة أول الخط، والخط يغيب دوماً في نقطة، وتلك هي حكاية الهندسة، بل هي الحكاية الأكبر باختصار.

2

تحرك الشارع، وعادت إليه حيويته المألوفة، فسمع هدير السيارات العابرة كعلائم لفوضى قادمة، وتعالى صوت بائع جوال ينادي على جرار الغاز وكانت قرقعتها تغلب على زمامير الآليات، واختفت أصوات السنونو التي يأمل الناس عودتها مع اقتراب الغروب. وابتدأت أمواج الهدوء تغمر فضاء السفرجل، وتستعد داره للعودة من جديد إلى إيقاعها اليومي، وكان النور قد غمر الغرف والزوايا في احتفاء بحيوية مبهجة، وجعل السفرجل يستعد للخروج قاصداً المقهى الذي يمضي إليه ماشياً كعادة رياضية اكتسبها بعد خروجه من العمل الوظيفي.

تراجع الخريف عن إنذار البرودة المبكر، ونضج دفء مقبول مع أشعة الشمس التي نشرت الحنان في كل مكان، فانتعشت أوصال السفرجل وقد تسارعت خطواته، وساعدت ساقاه الطويلتان في نهب المسافات كمن يسعى إلى موعد حميم. وتساءل السفرجل في

سره بعد قليل عن جدوى المشية السريعة التي لن تسمح له بتفحص واجهات العمارات التي كان يمرّ بها دون تفحص، فإذا به اليوم يفكر في تقصي تفاصيلها، وهكذا مالت خطواته إلى التباطؤ، فبات يمشي بوقار متوازن على الخط الممتد عبر الشوارع والحارات التي ستوصله إلى المقهى، هدفه الأخير. وأعاد سيره الهوينا جملة من الأفكار إلى ساحة تفكيره كانت تتجمع كطيور تبحث عن غصن تقف عليه.

رسوم ومخططات وتفاصيل لأحجام حجارة تشكل باباً أو قنطرة تقود إلى ممر، وخيمت غيمة قادمة من أعماق الذكريات ما لبثت أن أمطرت رأسه فاستسلم لرذاذها، كأن الزمن المستيقظ من سباته قد خمَّرته حيوات قديمة، فتنبه. ملعب الكرة في المدرسة يستدعيه، فكانت قدمه توقف الكرة ثم تركض بخفة تنهب الأرض التي لم تعرف العشب، ويلاحقه أفراد الفريق الآخر فلا يصل إليه أحد، ثم تتجمع النشوة في القدم لتسدد ضربتها فتتحول الكرة إلى قنبلة طائرة تهتز لها الشباك كبؤرة مغناطيسية تجتذب إليها الأهداف فتتعالى أصوات الفرح وتهتف باسم معين. ويخرج الفتى في يوم النصر مزهواً لتتعلق عيناه بالصبية التي تلفَّتت فجأة كطائر يعاين حركة مباغتة من خلفه أقلقته، فإذا بنظرات الشاب أشبه بالدهشة الجائعة. كانت الكبرياء تخالط خصلات شعرها المتدلة على الجبين وهي تستقبل نظراته عبر مسار خفي ربط بين الصبية والشاب لوهلة خاطفة. وأحس السفرجل بأنّ كرة الصبية قد سددت ضربة كافية لتمزيق شباكه.

لم يحدث له مثل هذا الأمر من قبل مع أنثى، بالرغم من أن شاشة السينما كانت قد وضعته في مواقف مشابهة، وهو يراقب ممثلاته المفضلات، معتقداً أنَّ الكثير من أحاديثهن يوجه إليه أو أنَّ الحب الذي يحملنه يعنيه وحده من دون الآخرين، إلا أن ما حدث له

أمام باب المدرسة كان واقعياً ولم يكن في ظلمة دار العرض، وأنه قد شعر به بكل أنواع الحواس التي يمتلكها. وجعلت ابتسامته التي أفلتت منه تسايل الخطوات التي تتبع الصبية الهاربة. وكانت تلك الملاحقة هي الأولى له في حياته، فإذا ما انتهى الزقاق بشارع صبّ فيه بلا إنذار استدارت (ثريا) وهي تضم كتبها إلى صدرها تحمي ثدييها اللذين شاهدهما في البداية يرتجان فينشران الرعشة في أقصى القلوب، وتطلعت إليه وهو يتوقف مذعوراً كطريدة أطبق عليها الفخ. وتحولت نظراتها إلى حالة من غضب مفتعل فتلبس معين الخجل كدبق الصيف. تراجعت الصبية خطوات ثم لتتقدم منه بثقة ارتج لها قلبه. قالت الصبية:

«هل تعرفني من قبل لتلاحقني؟».

فتعثرت الكلمات في فم الشاب وطفح الخجل على وجهه، وكان شعور الذنب يكبله وقد أحس بأنه يتجاوز الحدود حقاً. وهتفت الفتاة بصلابة لم يعرف مثلها من قبل:

«أعتقد أنك لا تعرف الكلام. تعلّم كيف تجاوب قبل أن تلاحق أحداً».

وكان العرق ينضح من مسامه، ويحني معين رأسه كمذنب ينتظر الحكم بعقاب، فاستدارت الصبية تكمل مشوارها، إلا أنها ما لبثت أن تلفتت إليه تهاجم صمته:

«ألا تخشى أن يراك أحد من أهلي وأنت تلاحقني؟».

وأضافت بهدوء وهي تستدير من جديد لتعاود السير:

«لن يغفر لك خجلك أنك لا تفتح فمك بكلمة!».

وشعَّ وجه ثريا بابتسامة بدت لمعين كدعوة للاقتراب منها، فتمالك قواه وزحف نحوها، فتقدمت خطوة نحو الخلف لتتجاوزه عائدة إلى الزقاق الخالي كأنها توجه له دعوة لمصاحبتها. ومضى تابعاً لها بأمانة كلب يحرسها عن قرب. سمعها تهمس بصوت واضح:

«نفترق عند آخر الزقاق».

كان لقاء آخر وفقاً لميعاد، فمشيا بعد الغروب بالقرب من سور مقبرة مسيحية بعيدة عن الأنظار فاستمع صمتهما إلى خفقات القلب كرقيب على مشاعر مرتبكة. قالت ثريا فجأة:

«هل تسمح لك دراسة البكالوريا بوقت تلاحق فيه البنات؟».

فوجد السفرجل فرصة لإظهار شجاعته فقال:

«تهمني في الحياة فتاة واحدة لا مثيل لها بين البنات».

وتمتم باعتراف بلغ مسامع الصبية:

«تغيرت حياتي من يوم رأيتك، وبتُّ شخصاً آخر لحظة سمعتك توجهين الحديث إلي».

فقالت ضاحكة:

«أريد ألا يتغير نظام دراستك. يقولون إن البكالوريا مرحلة قاسية».

وأضافت، وقد باتت المسافة بينهما ضئيلة:

«وأنا سأتقدم لامتحانات الكفاءة. يجب ألا ننسى واجب الدراسة».

وخرج السفرجل إلى الشارع العريض لتوقظه ضجة المرور كأن المدينة قد أعلنت اكتمال حيويتها اليومية. وكان الطريق يقترب من

المقهى الذي يحتل مكانه وسط المدينة. وقف عند كوخ الجرائد مستعرضاً المطبوعات المعلقة كمهرجان من الحروف والألوان فينتقل بصره من واحدة لأخرى. وكالعادة لم تكن صحف دمشق قد وصلت بعد، فاشترى (الجماهير) المحلية وتحول إلى المقهى القريب متأبطاً جريدته الوحيدة.

واستقبلت الزاوية المخصصة له ولرفاقه أول الوافدين، فاحتل السفرجل كرسيه في ركن المقهى الداخلي. وأطلَّ من بعد على الساحة التي يتلاقى فيها الشارعان الأكثر ازدحاماً ليعود إلى جريدته يقلبها. أخبار عالمية سمعها في التلفزيون ومشاكل أحياء كثيرة تشكو انقطاع الماء والكهرباء وانهيار بناء في منطقة لم يسمع بها. وتوقف عن استعراض العناوين لسماعه خطوات يعرفها. هلَّ (العميد المتقاعد) بضربات أقدامه على الأرض، فرفع رأسه مستقبلاً وجه العميد المتجهم. تبادلا التحية المقتضبة، وما إن احتل القادم كرسيه حتى أطلَّ (أستاذ الجغرافيا) بابتسامته. واكتملت الحلقة بحضور (الوزير السابق) الذي رمى على الطاولة بما يحمله من جرائد ومجلات وهو يقول:

«يبدو أن الخريف سيستمر خجولاً وهو يتنازع الحرارة مع الصيف».

صمتٌ من دقائق ميتة أحياها تساؤل العميد سامي بقوله:

«أحداث سوداء تثير القرف. عالم مجنون».

فلم يعلق أحد بكلمة. وجاءت فناجين القهوة لتشارك أهل الحلقة جلستها، وتبادل الحاضرون نظرات لا معنى لها. هتف العميد:

«يبدو أن الجغرافيا اليوم لا تميل إلى السكر في القهوة. أهو انقلاب؟».

فردَّ الأستاذ كامل بمرحه الجاد:

«لا يمكن الجغرافيا أن تستقبل أحداث العالم المروعة إلا بالمرارة».

وتابع كأستاذ يستكمل شرحه لطلابه:

«زلازل، فيضانات، حروب محلية في أرجاء العالم تخرّب الطبيعة، ثقب الأوزون يتسع بشراهة الفم الكوني».

وأضاف وهو يحرك في الهواء ملعقته التي لم يستخدمها:

«أي سكر سيعادل مرارة الأنواء أيها العميد سامي!».

فانبرى العميد آمراً:

«بل قل إنها الحروب غير العادلة انتشرت في العالم لترفع علم الظلم».

وكان السفرجل يفكر بصمت:

«هل وصلت إليك تلك الحروب يا معين؟».

وجعل العميد يضيف بلهجة أقل عنفاً:

«العراق محاصر، فلسطين تختنق بإرهاب المعتدين، ونحن محرومون من الطمأنينة».

وهتف برقة رجل لم يعرف خشونة التدريب العسكري:

«اليوم، أصبتَ يا أستاذ كامل، فالقهوة يجب أن تصنع من الحنظل».

هدوء خيم على الركن، وكان الوزير يتابع قراءة مقال باهتمام.

ووقف السفرجل عند الكلمات المتقاطعة في جريدته، وما لبث أن هتف كمن يعثر على سر يفشيه:

«هنا تكمن المشكلة. الحقيقة هنا، أن نبحث دوماً عن أجوبة».

وأضاف السفرجل بهمس مسموع:

«بعض الحروف قد تكون مستعصية، لكننا سنعثر عليها».

فتطلع إليه الآخرون يستجدونه شرحاً لما يقول، فردد القول مرتين كان في الثانية أكثر وضوحاً وهو يعرض صفحة الكلمات المتقاطعة على زملائه:

«حرف واحد يضيع منك فتختفي الحقيقة».

وتبادل الثلاثة نظرات التعجب. قال الوزير بثقة العارف:

«صاحبنا المهندس يريد أن يقول إنَّ ضياع أي حرف في كلمة يشبه انهيار بناء فقد منه عمود».

فصفق العميد على غير عادته مرحباً بالتفسير وهو يقول:

«تحليل الوزير نصر الله أشبه بالحديث عن فرقة مقاتلة غاب عنها قائدها».

وتحدث السفرجل بهدوء برز واضحاً وسط الهرج الذي ساد الطاولة:

«ليس الانهيار هو المقصود من قولي، بل هو الانحراف عن الحقيقة، أو لنقل اختفاء الحقيقة».

وتناقل الحضور الجريدة يعاينون زاوية الكلمات المتقاطعة، ووضع

الوزير حداً لتداول الجريدة وهو يتوجه بالسؤال إلى صاحبها:

«هل يضرب لنا الأستاذ معين مثلاً على كلمة ما افتقد فيها حرفاً؟».

فهتف السفرجل كمن هيأ نفسه لاستقبال سؤال كهذا:

«كلمة حرب ذات الحروف الثلاثة على سبيل المثال. جيد، فالكلمة واضحة للوهلة الأولى، ولكنها تُضيع معناها إذا ما بدل حرف الراء فيها بحرف الزاي».

وراح يكمل باستطراد:

«لنتصور أن الراء قد سقطت تماماً، فيكون المعنى هو حب. أهي الحقيقة إذا ما ربطنا الحب بالحرب؟».

وصاح مستنكراً:

«لا يمكن الحب أن يكون مساوياً للحرب بأي حال».

فتبادل الثلاثة نظرات استغراب لم يدركها السفرجل، فقد كان حديثه مضطرباً على غير عادته في الجلسات الأخرى. إلا أن السفرجل قال دون أن يعير رفاقه اهتماماً:

«يمكننا أن نتلاعب بأية كلمة، فنكون بذلك متلاعبين بالحقيقة».

فصاح العميد سامي مرحباً:

«أحسنت، فاللعبة في مجملها هي تلاعب بالحقائق».

وتابع السفرجل القول، وهو الذي عرف عنه غلبة الاستماع عنده على الكلام:

«خذوا اسمي معين، فهو يحتمل انحرافات عديدة في معناه إذا ما

سقط حرف منه».

فتساءل الوزير باهتمام من يطلب التسلية:

«تفضل، نحن كما ترانا نستمع إليك».

«الاسم من غير ميم يصبح (عين)، وإذا ما سقط حرف العين بات (مين)».

وتبادل الحضور نوعاً من الابتسام الغامض، إلا أن الوزير نصر الله هتف بمرح:

«وإذا ما ضاعت الميم من رتبة صاحبنا العميد؟».

آنذاك هتف الأستاذ كامل:

«تكون رتبته اسمها (عيد)».

فأنشد الوزير قائلاً:

«عيد بأية حال عدتَ يا عيد».

فأخفى العميد سامي غضبه وهو يتساءل بمرح مصطنع:

«وماذا يحدث للوزير عندما تضيع منه (الواو) كما ضاع الكرسي؟ النتيجة يا أصحاب هي (زير)».

وأكمل العميد يتلذذ في مضغ الكلمات:

«وما هو الزير؟ هو الوعاء الذي يحفظ الماء، بل يقال عن الرجل الذي يلاحق الجنس الآخر بنهم، إنه زير نساء. فيا لخيبة من لم يكن وزيراً!».

فابتسم الوزير السابق بمكر وهو يردد:

«زير نساء.. زير نساء».

وهتف جاداً كأنه يدلي بتصريح لرجال الإعلام:

«لمعلوماتكم أيها السادة، فقد كنت ملاحقاً من النساء طوال عمري».

وتنحنح في جلسته وهو يضيف:

«لم تكن الوزارة سبباً في اجتذاب النساء إليّ، فالأمر قديم والبرهان قائم».

وتمتم العميد بصوت مسموع:

«أهو السر في القوام الممشوق أم في المركز المرموق؟».

وسارع بالإضافة قبل إجابة الوزير، ولكن التقرير القاطع كان يصبغ كلامه:

«أجزم قائلاً بالعلم وهو يقدم أبحاثه للإنسانية متمثلة في صبغات متنوعة للشعر الأشيب».

وبالرغم من السخرية المبطنة التي حاول العميد إخفاءها، فقد تجاوز الوزير ذلك وقال:

«بعضهم ينكر على غيره جاذبية وضعها الله في قلّة من خلقه وحرمه منها».

ودامت الهدنة صمتاً قصيراً قطعه الأستاذ كامل، وهو يضع كتاباً متوسط الحجم على الطاولة، وقد أخرجه من جيبه كبرهان على القول الذي سيدلي به:

«جغرافيا الجوع. كتاب منسي برغم من صدوره القديم».

فلم تمتد يد أحد إلى الكتاب سوى ذراع السفرجل الذي أمسك به يعاينه ليقول بعد قليل:

«لا بد أن هناك كتاباً آخر عن تاريخ الجوع».

وجعل يقلب الصفحات وهو يقول:

«عن أي نوع من الجوع يكتب؟ أذلك الذي يتعلق بالمعدة، أم أنه الجوع العاطفي، أم ذاك الجوع الذي توقظه ذكريات الماضي؟».

إلا أن أستاذ الجغرافيا وهو ينقل باصريه بين العميد والوزير قائلاً:

«الصراع بين الجغرافيا والتاريخ يشبه في كثير من أحواله ذلك الصراع بين المدني والعسكري على سلطة ما».

وعاد الصمت إلى الطاولة المستديرة ليتسع سطحها مباعداً بين الرجال المتوزعين حولها، دافعاً بهم إلى حدود لا تسمح بالتواصل لدقائق تثير القلق. وبدا رفاق المقهى الذين لم يجمعهم سوى التقاعد عن العمل، أنهم بلغوا مرتبة من حكمة منعتهم من صدام محتمل، فاحتلت العزلة فاصلاً ما بين فترتين. وكسر الوزير جدار الصمت وهو يقلب صفحات جريدة لبنانية ليتوقف عند زاوية فيها ويهتف مشيراً إليها:

«كُتب علينا أن نسمع أخبارنا الداخلية من خارج البلد».

ومال بجذعه نحو مركز الطاولة، ففعل الآخرون مثله بحركات غريزية يصغون إلى سره الذي كان سيعلنه:

«كأن تغيراً ما سيحدث عندنا، هذا ما يلمح إليه الخبر في الجريدة».

ولم يحدث تعليق الوزير أثراً في النفوس، فانبرى الأستاذ كامل بقوله مفتتحاً صفحة جديدة:

«أصبت بمرض الجغرافيا في شبابي الأول. كنت قد شاهدت فيلماً شبه وثائقي برزت فيه الألوان الطبيعية الساحرة في الغابات الأفريقية، فقررت أن أعرف أكثر عن بلاد الدنيا».

وقال العميد:

«وهل شفيت من مرضك؟».

فتجاوز الأستاذ كامل التعليق قائلاً:

«وكانت الأحداث في منطقتنا تتوالى كالعواصف، وجعلت الأسنان الغريبة تقضم كعكة الوطن العربي. وهكذا عقدت العزم على البحث في الخرائط والحدود، وقررت أن ألتحق بالكلية التي تقدم أكثر في هذا المجال. وبالرغم من رغبة الأهل في أن أكون مهندساً أو طبيباً فقد بت طالباً في قسم الجغرافيا الأكثر إهمالاً من الملتحقين بالجامعة».

وعلق العميد سامي ممازحاً:

«وهكذا كوّنت ثروة من احتراف الجغرافيا!».

فأجاب الأستاذ كامل بانفعال هادئ:

«لم تكن لي حرفة، بل هي هواية بالرغم من تدريسي لها لأكثر من ثلاثين سنة. تملكتني لكنها لم تتح لي فرصة أن أمتلك ما يمكن أن يقال إنه ذو قيمة وفق مقاييس الناس. كنت عاشقاً لها، وتلك هي التي أقول إنها الثروة».

وتفتحت مسام السفرجل ملتقطاً كل حرف نطق به أستاذ الجغرافيا، فلم يكن كلامه يتعلق به بل وبالسفرجل نفسه في المهنة التي تعلق بها ولم تتعلق به فظلَّ على حبها مقيماً، وأحس بقرابة أكثر من الرجل، فيلوم نفسه على أنه لم يعرفه منذ زمن بعيد.

وفرق الصمت مرة أخرى بين أعضاء الحلقة، بينما تتنامى الضجة مع تزايد الرواد في المقهى وهم يحتلون أركانهم المعتادة وكأن نوعاً من الميثاق اتفق الجميع عليه، وقد ساد نوع من العرف لم يتجاوز التحايا المتبادلة في قلة من الأحايين. وضعف الضوء في المكان لسحابة خريف عابرة ما لبثت أن انقشعت بالسرعة التي مرت بها في فضاء المدينة، فهتف أستاذ الجغرافيا:

«هكذا يُستدل على الخريف، فالغيمات النزقة تأتي من غير إنذار لتنسحب فجأة، وهكذا يمكن الإقرار بأن هذا اليوم هو من الأيام الطبيعية».

وارتسمت على وجه السفرجل ابتسامة غامضة وهو يقول:

«لا أظنه يوماً طبيعياً»

وأكمل قوله متابعاً دون أن يعير اهتمامه لاحتمال تعليق من أحد:

«ألا ترون أنه لم يكن يوماً كالأيام السابقة؟».

آنذاك قال الوزير بتقرير جازم:

«أول الدلائل على احتمالات التغير ما جاء في تعليق ال(ب.ب.س) الباكر في استعراض أقوال الصحف اليوم».

فقال العميد معلقاً:

«لا أعتقد أنها أشارت إلى عودة الحق إلى الفلسطينيين أو فك الحصار عن الشعب العراقي».

فمال الوزير نحو الآخرين كعادته في نقل معلومات بالغة الأهمية هامساً:

«كانت هناك إشارات إلى وزارة جديدة هنا».

فقال العميد بصوت خفيض:

«وسيادة الوزير يتطلع إلى الكرسي مرة أخرى!».

فعلق الأستاذ كامل بمرح لا تُميز فيه السخرية من الجد:

«نقطة الماء لا تمر في مجرى النهر مرتين. هذا هو القانون الطبيعي كما نعرف».

وقال السفرجل بوداعة لافتة:

«إذا ما قدرت عودة وزيرنا إلى مكانته السابقة، فإن الخسارة ستلحق بنا».

فهتف الوزير مطمئناً أصحابه:

«الوزراء يجلسون في المقاهي أيضاً، ونسيان الأصحاب ليس من شيم الرجال».

فعلق أستاذ الجغرافيا بقوله:

«المقاهي للعاطلين من العمل، والمتقاعدون منهم».

وتعاقبت الأقوال، فكان معين السفرجل في تلك اللحظات يحس بنفسه كأنها تخرج من الأبواب والنوافذ تلبية لضوء الشمس يدعوه

للالتحاق به، وشعر بأنه يطلب الهرب من جماعته، وأنه يريد أن يكون في مكان آخر يساعده في استرجاع ذكريات كادت أن تهرب منه في جلسة المقهى.

«أليس هذا اليوم بخارج عن نظام الأيام الطبيعية؟».

3

لم يداخله خوف أو قلق وهو ينتظر إعلان النتائج. سيكون من الأوائل دون ريب، فالسنوات الخمس في الكلية عززت ثقته في أن يظل من المتقدمين على أقرانه إن لم يكن الأول فيهم. ويوم تسلم وثيقة التخرج طار بها إلى أهله، إلا أنه لم يستطع أن يمانع نفسه من المرور أمام بيت المحبوبة التي لن يظهر لها وجود في الشرفة أو غيرها، ووقف على الرصيف المقابل مرسلاً بعينيه إلى دار الوحشة تجوسان في كل زاوية تتعلق بها كمنقب يائس في منجم مهجور. هل انتهى كل شيء؟

في آخر لقاء بين المحبَّين جرت وقائعه القائمة في الحديقة العامة، وكانت العاصفة تستعد لأن تزمجر بعد أن تأففت ثريا قائلة:

«ها أنت قد أصبحت في السنة الثانية، ولم تفعل شيئاً. السنوات تمر يا معين».

«وما زال أمامي سنوات أربع».

«ألا تعتقد أنك أصبحت مؤهلاً لطلب يدي من أهلي؟».

فقال معين والألم يعتصر قلبه:

«ما زلت عاجزاً عن إعالة نفسي، فمن يقبل بزوج لابنته في مثل وضعي؟».

دارت ثريا حول جذع شجرة لم يعد يذكر لها اسماً، وكانت تقول:

«أقبل بك وبوضعك على ما أنت عليه، وما عليك إلا أن تطرق بابنا وتتقدم».

وهتف معين متوسلاً:

«حبنا مرت عليه سنتان وعرفنا الصبر، ولم يبق إلا الصبر أيضاً يا ثريا».

وكان المحبان قد انتقلا إلى قرب شجرة صفصاف نشرت القلق مع ظلالها، وهتفت ثريا:

«لكن أهلي لا يعرفون الصبر. والدي وأخوالي، وأمي المسكينة بدأت تعجز عن مقاومتهم دفاعاً عن رفضي لخطّاب يطرقون بابنا».

فصبغ الرجاء قول العاشق بالاستكانة وهو يتمتم:

«أرجوك، باسم حبنا، لا تسمحي لأحد بأن يفسد الحب الجميل بالاستعجال».

كانت لقاءات المحبين تتوزع بين دور السينما النائية ومداخل الأبنية

المظلمة والممرات المنعزلة في الحديقة، وكانت المناطق البعيدة تتستر عليهما أيضاً. يكلمها عن المستقبل، ويفرش أمام عينيها تفاصيل المكتب الهندسي الذي سيديره بعد التخرج. سيحقق الحلم الذي لن تكون له حدود. «سأضع تصاميم لمسرح المدينة ولمسرح صيفي لليالي حلب العليلة وأتخيله عند سفح تل يواجه القلعة في الطرف الآخر من المدينة. سأتعامل مع حجر حلب في تصاميمي المختلفة، محطات لانطلاق المركبات في الجهات الأربع، مبان لأهل الدخل المحدود تنافس في الجمال عمارات الموسرين. أفكار كثيرة لحدائق تضم مراكز للموسيقى تُعزف في الأعياد والعطل، ومراسم للفنانين. لا حدّ أقف عنده يا ثريا».

وفي ذلك اللقاء الأخير هتفت ثريا بغضب:

«هل يعقل أن أرفض الخطيب الرابع من أجل عيون الانتظار الذي لا أرى فيه أي أمل؟».

وأضافت متحسرة:

«لن يسمح لي أهلي بالبقاء هكذا. أنا أقترب من العشرين»

وتأوه معين لا يستطيع مقاومة نزف جرحه:

«وماذا عن الحب، عن الأحلام التي أرسمها لأجلك؟».

«تتقدم الآن وليس بعد، تطلب يدي، ونضع حداً للحب العائم».

هكذا هتفت الصبية بحزم، وتابعت:

«أليس الزواج هو الهدف من الحب؟».

سقطت أوراق الأغصان، ونشفت عروق الأشجار، وتشققت أرض

النهر الذي يخترق قلب الحديقة كرمح مسموم، واختفت الطيور، وتناثرت الأزهار كمنشورات تدعو للاستسلام في حرب غير عادلة. وبات الشاب معين السفرجل وحيداً كعجوز يستعد لقبول نهاية محتومة. وكان يجلس على المقعد الذي تقشر دهانه الأخضر كالحراشف المستعدة للتطاير. مضت الحبيبة مبتعدة كشعاع امتصه الظلام. أهو اليباب الشامل يفتتر خاتمة الحب الذي لن يكون له عزاء؟ أهي لعبة النقمة وهي تلاحق النعمة التي توهب للإنسان ثم تسحب منه بلا رحمة؟ هل دقت أجراس النهاية وأسدل الستار على المسرحية في فصلها الأول وما عاد هناك أمل في تتابع فصولها الأخرى؟ أم أن ذروة النهاية قد زرعت في أرض المحبة منذ البداية؟ وتنادت في الحديقة جميع المخلوقات غير البشرية من حشرات وحيوانات ونباتات إلى ترديد أغنية الوداع الحزينة، وقد ملأت قلب السفرجل بالعتمة القاتلة. وها هي أيام التلاقي تُطرد كزمن منبوذ وتُغسل الوعود المورقة كأعشاب ربيع بأمطار جارفة.

ومرت الأيام كحصان مجنون يجري في برية لا أفق لها، وبهتت بصمات الحب على أماكن الذكريات التي لا يلبث معين السفرجل أن يزورها من حين لآخر كحاج يبحث عن يقين بأن ما حدث له من قبل كان حقيقة، وهو يحاول أن يقترب من تلك اللحظات الرائعة، فإذا بها تنفر مفزوعة كوعلٍ شيطاني. سأظلّ أفتقد ما أعطته ثريا للحياة من لحظات المعاني ومعاني اللحظات، هكذا كان يحدث نفسه في أيام الضياع وهو يتحسس الندبة التي خلفها الحب اليائس في الروح، فهل تسقط آثارها مع مرور التقادم؟ ها هو منزل الحبيبة، وتلك هي شرفته الذي كان يطل منها على الدنيا بشجيرة الياسمين التي أزهرت له على مرّ أيام الحب المجنون، وها هو الفراغ البارد يتجهم في الشارع كزعيم يلقي خطاب اليأس على أشباح من

بشر تطالب بأي شكل من أشكال الأمل. إذن فقد تزوجت حبيبة العمر الأولى، ومضت كوميض خاطف مبتعدة عن كل الأماكن التي سبق لها أن فجرت أحاسيس الحب فيها. رحلت إلى الخليج مع زوجها، وعندما بلغت السفرجل تفاصيل العرس الكبير علم أنه لن يكون بأي حال واحداً من الذين يلعبون دور البطولة في مسرحية البذخ الشرقي.

وتقدم عمر الزمن الخائب، فبات المرور بحيّ الحبيب خارج برنامج السفرجل، وتحول الشارع الذي فصل المدرسة القديمة عن العمارة التي ضمت ذات يوم طيف الصبية إلى مساحة متطاولة من جانب الجغرافيا الباهتة للمدينة. وكانت تلك المنطقة أصلاً تمثل توسعاً للحداثة الحلبية التي تخرج عن طوق العراقة المتمثل بالمدينة القديمة، لذا فقد رافق ازدياد اهتمام المهندس المعمار بتفاصيل حلب نسيان يتسلل بهدوء إلى ذاكرة الرجل الباحث عن وجود لائق لأحلامه المتوالدة.

واستعادت ضجة المقهى مكانتها في سمع السفرجل بعد انقطاع، ونفذ صوت أستاذ الجغرافيا إلى أذنه خشناً في الملاحظة التي حملتها كلماته:

«هل كان غياب روحك عنا يا أستاذ معين بسبب قلّة النوم، أم أنه الحب بعد الستين؟».

ثم أردف برقة مباغتة:

«من أخذ عقل المهندس المتقاعد؟».

فافتعل السفرجل ضحكة قصيرة قائلاً:

«الحب بعد الستين! لقد باتت راحة البال بديلاً من الحب يا صاحبي».

وتساءل السفرجل ساخراً:

«أهي هلوسة جغرافي خرج من الخرائط خالي الوفاض؟».

وتحدث كأنه يعوّض عن صمته الذي طال:

«من يقول إن زمناً كهذا بات يصلح للحب أصلاً!».

فاستيقظت حماسة العميد في قوله:

«هذا زمن الحروب الظالمة. الحروب غير المتكافئة والمعارك التي ما عاد لها تفسير سوى الدهشة».

وعلق الأستاذ كامل قائلاً:

«أنا معك، فدهشة الحروب المتناثرة في كل مكان تفوقت على ما تقدمه الجغرافيا من عجائب».

واستفاض في حديثه:

«وعلينا ألا ننسى أن أسرار الجغرافيا مستعدة دوماً لإثارة دهشتنا».

وعدّل الوزير من جلسته في محاولة للإدلاء بتصريح طويل، إلا أنه اكتفى بالقول:

«دعونا نتكلم أكثر على الحب».

ووجد السفرجل فرصة للسخرية من نفسه قائلاً:

«الفاكهة القاسية لا تليق بأسنان العجائز».

فهتف الوزير بين جدّ ومزح:

«من هم العجائز؟ وأذكركم بأن أسناني ما زالت تقضم الحجر».

فكان أستاذ الجغرافيا كمن يحدث نفسه:

«بعضهم قضم الحجر وأشياء كثيرة».

وتجاهل الوزير نصر الله همس أستاذ الجغرافيا وقال:

«الحب هو العلاج لكل حالة ليست صحيحة، وبخاصة للذين تلحق بهم شيخوخة مبكرة من أمثال أفراد يترددون على المقهى».

وقال الأستاذ كامل بلهجة من يسنون القوانين:

«المتقاعدون ينتمون إلى فصيلة الشيوخ شئنا أو أبينا».

وضرب الوزير الطاولة بخفة وهو يلوّح بكفه هاتفاً:

«الشيخوخة مرض الضعفاء الذين لم يبق لهم أمل، وأعتقد أن الإحساس بالتقاعد هو الضعف الحقيقي».

فعلّق معين السفرجل ساخراً:

«وبمَ يحس المتقاعد؟ بأمل التراجع عن قرار إحالته على التقاعد! هل يحس بالفخر لأنه لا يفعل شيئاً له قيمة؟».

وتجاوز الوزير رغبة العميد في الكلام فسارع بالقول:

«من كان فيكم من ينتمي إلى الشيخوخة، فليذهب فوراً إلى جمعية خيرية، أو فليحجز له سريراً في دار العجزة، فقد يحصل فيهما على عزاء العطف».

وأضاف متخذاً هيئة الخطيب في جمع تتعلق به الأبصار:

«التقاعد يا أصحاب، هو بداية لجولة أخرى جديدة، وأنا أستعد لها. المتقاعد الضعيف هو من فقد القدرة على اتخاذ هيئة الاستعداد الدائم».

وخيم السكون على رفاق الصباح لفترة قصيرة، إلا أن أستاذ الجغرافيا قطع أوصال شبكته الثقيلة بقوله المندفع:

«ملايين السنين هو عمر الكوكب الذي نعيش فيه، وهذا يدفع إلى التساؤل إن كانت الكرة الأرضية تذهب حقاً نحو الشيخوخة أم أنها تتجدد مع تقدم الزمن».

وصاح الوزير مؤيداً:

«أحسنت أيها العالم الجغرافي، فالأرض تخبرنا حتماً ما معنى الشباب الدائم».

وزاد الإطراء من حيوية الأستاذ كامل، فقال بحماسة المعلم أمام تلاميذه:

«السحب تتجمع لترسل بالماء إلى التراب لأنها تقوم بالوظيفة المرسومة لها، والنباتات تخضرّ مع ظهور الشمس التي لا تتوقف عن الشروق، والجبال ما زالت شامخة بالرغم من الزلازل، والبراكين لم تخمد بعد، وأمواج البحار تتلاطم في رقصتها الأزلية، والأجناس في الطبيعة تتناسل في زمن لا يشيخ، وتلك هي الحكاية القائمة».

فقال العميد وهو يهز برأسه بين تساؤل واقتناع:

«أهي دعوة للإيمان بديمومة الشباب؟».

فأرسل السفرجل آهة وهو يتمتم:

«أراها دعوة ذكية لتقديم العزاء لنا».

وأطرق الوزير فجأة وهو يقول بحكمة عميقة:

«عزاؤنا هو في استمرار الشباب فينا».

وكانت واجهة المقهى الزجاجية تسمح لرواده بمراقبة أحداث الخارج من مارة يعبرون وسيارات راكضة، وكانت تؤمن لهم فرصة للتأمل بعيداً عن كلام يتحدثون به أو إصغاء يجبرون على الالتزام به. وتعلقت الأبصار بموكب السيارات القليلة تقوده عربة الموتى البيضاء، فكانت الفرصة التي كسرت سلسلة الكلام قد علّقت الأبصار بموكب الموت، وتشاغلت الأفواه بقراءة الفاتحة. وكان وجه الوزير الأكثر تجهماً، بينما هب السفرجل واقفاً ليتجه ماشياً نحو المدخل، فكان خروجه من المقهى مثار التساؤل الذي ارتسم على وجه رفاقه المسمرين بكراسيهم.

كان الاهتمام يتجمع في أذني السفرجل بعد أن بلغهما اسم الميت الذي حمله موكب الجنازة. وابتعد السفرجل عن المقهى ملاحقاً الموكب، إلا أنه ما لبث أن توقف وهو يستمع من جديد إلى الإعلان عن اسم المشيّع، وقد أدرك أنه يُذكّر بواحد من رفاق المدرسة الابتدائية الذي تجسد له شخصه بوضوح كامل.

«نعم، هو نفسه، ومن يكون غيره؟».

السايس، شوقي السايس ابن عبد الواحد السايس، فتى المدرسة الأول في الشغب والسخرية. الولد الذي تخصص باختراع الألقاب يوزعها على التلاميذ. الأقرع، الأهبل السمين، أبو مخطة نايلون،

دلوعة أمه، والحبل على الجرار. وكان السفرجل يستعيد تلك المرحلة بابتسامة منهكة وهو يقول لنفسه:

«أما أنا، فقد خصني بلقب كانت له علاقة بحقيقة عابرة، لكنه لقب هاجم أعماقي لسنوات عديدة قبل أن يصبح دعابة تثير جانباً طريفاً من الذكريات».

وكان السفرجل آنذاك قد اختفى لأيام منقطعاً عن المدرسة، وعندما عاد إليها فسّر غيابه ببراءة لأنه كان يعالج من (الجرب) تداويه أمه منه بمسحوق الكبريت كما يفعلون مع الجمال المصابة. فالتقط أبو الألقاب شوقي السايس ذلك الخبر وطار به في كل مكان مردداً (مُعان الجربان)، فالتصق اللقب به لا يستطيع منه فكاكاً، وبات المعين معاناً والسليم جرباناً، وهكذا ذاع بين الطلاب لقب جديد تداولوه لفترة غطى على غيره من ألقاب شائعة. وبالرغم من شراسة السايس في الكلام إلا أنه لم يؤذ أحداً بيده كما كانت العادة منتشرة بين الطلاب آنذاك، وهكذا كانت قدرته على اختراع الألقاب بمهارة سلاحه الذي لا تنسى آثاره بسهولة.

إذن فقد انتهت مسيرة شوقي السايس، التي لم يعرف السفرجل شيئاً عن طبيعة رحلتها، فودع الموكب بقراءة الفاتحة يرتلها بهدوء يلاحق النعش. ما الذي يمكن أن يقول السايس الآن؟ (منقوع السفرجل) أم (معجون السفرجل) أم (معين المسكين)؟ أهي النهاية المحتومة لحيوية إنسان افتتح حياته بالسخرية من كل شيء فانتصرت عليه سخرية الحياة؟!

«لا شماتة في الموت»

وكان السفرجل يتمتم وهو يلاحق بعينيه ذيول الموكب:

«ها أنت تشهد ذهاب جانب من ماضيك إلى التراب».

وقال السفرجل لنفسه:

«إنهم يتساقطون كأوراق الشجر في خريف لا يرحم».

ومضى مبتعداً عن الساحة والمقهى متوجهاً إلى هدف لم يفكر فيه. أيام تولد وأيام تغيب، وكان يشعر بخطواته تسعى بلا معنى على أرض الشارع الذي ظل إلى سنوات سابقة الأهم في المدينة.

4

عيناه تراقبان البساط الكالح للشارع المتطاول كحبل يمتد بين بداية ونهاية غير مرئيتين. وكان السفرجل ينقب في طبقة الزفت باحثاً عن آثار قد تكون باقية لسكة الترامواي الحديدية التي كانت تشق أرض الشارع، فلم يستطع أن يتبين معلماً لها. كانت الحافلة الصفراء قادمة يسبقها رنين الجرس يحذّر المشاة من عبور السكة أمام الترامواي المتهادية بفخر لمعانها وهدير عجلاتها، فإذا هي كحيوان حديدي ألف مرحه أهل المدينة يركض في الشوارع التي خصصت له جاعلاً للناس توقيتاً خاصاً ليومهم، فقد كان ملتزماً بنظام محسوب، كما أنه لم يسجل أذيّة إلا في ما ندر، وكان السفرجل يحدث نفسه بأسى:

«أين غابت حافلات حلب؟ وهل دفنت في مستودعات مهجورة، أم خصصت لها قبور بلا شواهد؟».

وقال مهمهماً فلم يلتفت إليه أحد من المارة:

«كنا نستقلها في الذهاب إلى المدرسة وعندما نرتاد دور السينما في قلب البلد، ونصل إلى القلعة بها. تذهب غرباً وشرقاً ونعرف الاتجاهات الأربعة من ملاحقة سكتها التي حصنتها أحجار سود تحدد لها مساراتها. هل بات الشارع الآن روزنامة نقلب أوراقها القديمة لنستدل على الأحداث الغائبة؟».

وكان الفتى الصغير معين واقفاً في مدخل عمارة يلاحق التظاهرة الحاشدة بعينيه ودهشته يشعل هديرها رجال يهتفون، وقد تحول الشارع الكبير إلى مجرى سيل متدفق، وتعالت الأصوات الغاضبة تتماوج الأجساد معها. يصرخون من أجل فلسطين حرة وينزلون الويل بقرار التقسيم ويعيرون الأمم المتحدة بالظلم والعهر. وحرك الغضب عواطف الفتى الصغير، فحسب أنه يستطيع أيضاً أن يكون من أهل التظاهرة، فهمّ بالتوجه إليها، إلا أن يداً غليظة أمسكت بكتفه لتجره إلى صاحبها. جعل الرجل يحذر الفتى من الزحام المجنون الذي لا يليق بالأطفال، آمراً إياه بالابتعاد والعودة إلى أهله. وعندما أفلت معين من قبضة الدخيل، ركض هارباً إلى ركن آخر يقف فيه مراقباً المشهد الذي لم يعرف مثله من قبل. هل يمكن هذا الشارع أن يتسع لأهل المدينة كلهم؟ وهل هناك اتفاق مسبق على هتاف موحد؟

ويتابع الهدير غضبه، فترتج له السماء. تقف الحافلات وتغلق الدكاكين والمقاهي فيبدو كل شيء مقفلاً. فينتقل الصغير إلى مدخل آخر لعمارة قديمة، ناجياً بنفسه من زلزال الأرض من حوله، ويلبث ساكناً والمشهد ما زال من حوله يمنحه مشاعر لا يجد لها تسمية. المدينة غاضبة تتجاوز بعنفها كل أنواع الغضب التي عاشها

في البيت والحارة أو في المدرسة. رفضٌ واحتجاجٌ وحناجرُ يمزقها الصراخ، فيتساءل معين عن معنى التقسيم. البرتقالة تقشر وتقسم كي تؤكل، والقسمة تكون حلالاً أو أنها غير عادلة، فتُرضي أو توجع. الرفاق والأصدقاء على قلتهم يتساوون في القسمة لأي شيء، والأقوياء بين طلاب المدرسة يمسكون بكل شيء، بالكرة يتقاذفونها في الحوش في ما بينهم، وبالمقاعد المتقدمة في غرفة الصف ليحتلوها، وفي الأحوال كلها فالقسمة مع غيرهم لم تكن عادلة.

وتساءل الصغير معين:

«هل فلسطين كعكة تصرخ التظاهرة ضد تقسيمها، ومن الذي سيقتسم الكعكة مع أصحابها؟».

وابتدأ مصطلح فلسطين يشكل أولى لحظات الوعي بما يجري خارج مملكة الفتى التي تحدّها الدار من جهة والمدرسة من طرف آخر. وكانت مملكة معين هي مصدر المعارف والحقائق التي يدركها فيحسها ويعيشها، فلا تخالطها أمور أخرى من خارج تلك الحدود. وابتدأت الحارة القريبة من حيّهم التي تصبح ساحتها ملعباً للأولاد، بتداول أخبار مستجدة كالهجرة اليهودية المستمرة إلى أرض فلسطين التي يتكلم أهلها العربية أيضاً وترتفع فيها المآذن وتدق النواقيس كما الأمر في حلب تماماً، لذا قام الناس من كل الأرجاء للدفاع عن قرابتهم بالدم والتشابه الكامل، إلا أن الحديث بين الأولاد بعد فترة كان يدور حول العجز عن صد عدوان العصابات الصهيونية. إلا أن كلمة التقسيم ظلّت كحكاية مبهمة لا يدرك عنها الكثير بالرغم من أن الفتيان لم ينقطعوا يوماً عن ذكر قرار التقسيم كمأساة تعادل خطراً ليس كمثله خطر. ووقر في ذهن الصغير معين أن وضع اليهود في فلسطين يشبه في كثير من الوجوه الأيام الفرنسية هنا التي

طالما تحدث عنها الأب مع الأسرة وزوار الدار الذين لم ينقطع لهم حضور.

وانقشعت غيمة الذكريات فجعل السفرجل يمعن النظر في ما حوله، وكان قد مضى بعيداً في مشيته باتجاه حلب القديمة. وثبتت قدماه عند قاعدة الدرج العريض المتصاعد بنظام كي يصل إلى المدخل الذي تبتدئ به بوابة القلعة الأولى. وجعلت عيناه تتسلقان الدرجات الحجرية التي شهدت على مر مئات السنين فرساناً وغزاة ومرّ عليها سياح وباحثون في الآثار، وهي التي رافقت الجنود الفرنسيين يغادرون في آخر يوم لهم في البلاد. هتف السفرجل في سره وهو يتأمل القلعة:

«يا للعمارة التي لم تتأثر عبر كل تلك السنين بالأنواء المتغيرة والأحداث المتعاقبة!».

وكانت أشعة الشمس تسقط عمودية على القلعة فذابت ظلال السور العالي في بطن التل الذي ما زال يحمل جوهرته على أكفه المنبسطة للسماء، فيبدو الأمر كأن الولادة التاريخية للقلعة قد أتت من القمة، مخالفة بذلك قانون الطبيعة في الولادة، وليصبح ذلك الأثر العريق جانباً من معجزات الطبيعة لا يشبه في ولادته ما يحدث للأنثى، بشراً كانت أو حيواناً. وراح السفرجل يتحرك على خط مستقيم تقدماً ورجوعاً كصلاة يؤديها أمام مدخل القلعة، مفكراً في وجوده كواحد من ملايين البشر الذين مروا، وكمهندس معمار تتضاءل قيمته أمام عظمة البناء. وتساءل:

«أما كان اللائق بك أن تعيش في حقبة ولادة القلعة التي حوّل فيها البناؤون حجارة حلب الصماء إلى كائنات تنطق بالتاريخ الذي كتب له أن يمتد حياً في جسد المستقبل؟».

وبدا البناء، الذي وُسم بدار الحكومة، أنه قد خسر في أن يكون نداً للقلعة وقد انتصبت قامته في مواجهتها، وذلك بالرغم من الهيبة التي أراد المعمار أن يلبسه ثوبها والتي عززت أهميته أمام المباني المتناثرة في محيطه. وعادت عينا السفرجل إلى القلعة في اللحظة التي تحركت فيها قدماه لتمضيا ماشيتين حوله تطوفان بها كحاج لم يتوقف عن الثناء على كبرياء ذلك الصرح الذي طبع المدينة بإتقانه ودقة صلابته، كما أنه بات نقطة المركز الذي تدور من حوله أجيال متعاقبة خلفت في الدوائر المنداحة بنظام بيوتاً وأسواقاً ومعابد وحمامات ومقابر وحيوية لم تهدأ منذ آلاف السنين. جيوش الغزاة والطبيعة الغاضبة في زلازلها وأشعة الشمس المتواترة وفق نظام الفصول الأربعة لم ترهبها. وتميزت مآذن الجوامع وهي تشيع الراحلين بدعاء لم يحدث لمدينة عربية أن أنشدت مثله، وكأن حلب اختصت بإعلانها عن رحيل واحد من أبنائها بنشيد ديني يقدم العزاء، فكان الدعاء الذي ذابت فيه ألحان سريانية وبيزنطية ومحلية قد أصبح في المدينة حالة خاصة يساند القلعة في منح التفرد لحلب.

وما لبثت الخطوات المتهادية للسفرجل أن خرجت عن السوار الذي يزنّر الخندق، فانعطف في طريق منحدر يصب في شارع تطل عليه مجموعة من الدور المتضاربة في تمثيلها للزمن، فما كان قد بقي من البيوت القديمة بات ممثلاً للتآخي القائم مع سيرة القلعة الضاربة في أعماق التاريخ. وأما الجديدة من تلك الدور فقد اندست بين الأبنية الوقورة فباتت كرقع شاذة التصقت بثوب عريق يقاوم التمزق بغريزة أصيلة. وظهر ذلك التضارب في التكوين والجمال كسلسلة متعرجة في الشارع، إلا أن العراقة غلبت السوقية على كل حال.

قادت قدما السفرجل إلى نهاية الدور، حيث انتصب بناء جليل

منحته القرون شخصية جميلة وضعت نهاية لائقة لتكسر خط الأبنية. وقف يعاين واجهة جامع (الأطروش) المطلة على ساحة كأنها لوحة فنية في قاعة لا تضم سواها. لم تكن تلك المرة الأولى التي يعاين فيها السفرجل ذلك الجامع كمشاهد فيه متن. نقوش متباينة بارزة يشكل ظلها إيقاعاً يتداخل مع لحن تتابعها غير المتناظر فتسلل موسيقى الأطروش إلى روحه المنتشية، ولكن النشوة ما لبثت أن تعثرت لتصبح ندماً وهو يفكر لِمَ لَمْ تتم له الفرصة في أن يشارك الأجيال السابقة في صنع عذوبة موسيقية للحجر. وعاد إلى التأمل وقد نفض عنه رماد الأسى، فكانت تغلب عليه زخارف البناء الذي خرج عن التناظر الإسلامي المألوف ولتفجر رغبته في العودة إلى أحلام المهنة التي ابتدأت نوراً يضيء الروح وانتهت إلى استسلام لواقع قاتل. وهتف في سره:

«لم تمنح لك فرصة من قبل لإثبات ذاتك، فمن تراه يعطيك الآن مهلة أخرى؟».

كان معين بعد التخرج من الكلية يتطلع إلى مكتب يخصه، فلم تكن الظروف مواتية، وفكر في مكتب هندسي معروف ليلتحق به، إلا أن الحاجة إلى الاستقلال دفعته إلى الالتحاق بالعمل الحكومي، فكانت إدارة الأبنية المدرسية من نصيبه، وقد كانت ناشطة في تأمين المدارس للأعداد المتنامية من الطلاب في الريف والمدينة. ووجد السفرجل نفسه في قفص الوظيفة تضيق عليه قضبانه، كانت المخططات تأتيهم كاملة من الإدارة المركزية في العاصمة كأوراق نقدية متشابهة في معظمها، لذا فقد كانت مهمة المهندس المحلي تنحصر في تطبيق المخطط وإجراء تعديلات طفيفة عليه وفقاً لموقع الأرض ومساحتها، وهكذا تمضي الأيام ليتحول إلى منفذ، مبتعداً عن جوهر عمله المتعلق بالتصميم، كما أن آراءه والتقارير التي كتبها

لم تلق أذناً صاغية.

«رؤيتي لأهمية المبنى في حياة الطالب وتكوين الحس بالجمال لديه، لم تلق سوى الإهمال».

«أليس خطراً على المدينة أن تتشابه فيها المدارس مع السجون؟».

«الجامعة تؤهلك لتكون خلاّقاً، والوظيفة تعدّك لتكون متفرجاً مطيعاً».

«أكانت تلك مأساتي وحدي، أم أن داء التسليم ينتشر كالوباء؟».

أخذت مواقف السفرجل في السنوات الأولى من العمل شكل الغضب والاحتجاج الدائم. وتسلل الاستسلام إليه مع مرور السنين، إلى أن أصبح في الفترة التي سبقت التقاعد أنموذجاً مثالياً للمهندسين الجدد الوافدين إلى استراحة طويلة. يدخل بابتسامة الصباح ويخرج بتلويحة الانصراف، وكأنه دخل في سباق مع الآذن المطيع لينال وسام التهذيب. كان السفرجل يتكلم بمرارة عن الشخصية المتفردة التي يجب أن تتوافر لأي مبنى مدرسي وأن يتماشى تصميمه مع النسيج العمراني للبيئة المحيطة به، كما أن عليه أن يكون نافذة تُرى منها فنون العمارة كثقافة شعبية وتاريخية. كان يحلم بحديقة تحتضن المبنى، بأشجار دائمة الخضرة وملاعب يتحرك فيها الطلاب كمساحة لممارسة الحرية. ولطالما أتاه الرد، مشيراً إلى أن الحاجة الآن في بلد ينمو تستدعي تأمين أمكنة للتعليم، لا للاهتمام بقضايا جمالية تهلّل لها البورجوازية.

5

مرّ بالصيدلية وهو في طريق العودة إلى البيت، وكانت قد حفلت بعددٍ من الزبائن لم يألف من قبل مثله. شيوخ ونساء وأطفال ملأوا المكان الذي ارتفعت من حوله أرفف الدواء في نظام كامل، فكان السفرجل يراقبها كأنها لوحة هندسية، وعندما يعود ببصره إلى الزبائن يدرك أي فوضى هم فيها، كأن الصيدلية تحولت إلى ساحة من تناقض مرسوم. أحس بعد قليل بأن وجوده جاء في وقت غير مناسب وأنه يستطيع أن يأتي في يوم آخر، فتراجع نحو المدخل يطلب الخروج، إلا أن الصيدلي لمحه في الزحام فناداه عليه باسمه مرحباً يدعوه إلى الدخول، فاستجاب السفرجل ليحتل كرسياً بالقرب منه.

لبث السفرجل ساكناً يتابع حيوية الصيدلي ومساعده. قال لنفسه:

«يتزايد عدد المرضى في هذه الأيام».

وجعل يقلب دليل الأدوية الذي يفوق دليل الهاتف في حجمه،

وعندما أعاده إلى حالته السابقة كان يفكر همساً في سره:

«لم تعد الأمراض تخصّ الشيوخ».

وفكر متسائلاً:

«لِمَ أصبت بالضغط المرتفع بالرغم من أني اتخذت قراراً بعدم الانفعال والمكابرة؟».

وعندما انتهى الصيدلي من تسليم الدواء للوصفة الأخيرة، التفت إلى السفرجل يعاود الترحيب به وليتخذ مكاناً قربه.

«أين كان الغياب يا رجل؟ مسافر!».

وأضاف الصيدلي قائلاً بحرارة:

«أسبوع كامل، بل أكثر، ولا تمر بي كعادتك!».

وقال الصيدلي وهو يمسح حبات العرق عن رأسه الذي فقد شعره:

«يوم حافل كما رأيت بعينيك. ما عدنا شباباً».

وأكمل وهو لا يدع فرصة للسفرجل في تعليق:

«لِمَ الخريف ينشط في توزيع الأمراض على الناس؟».

وخطف السفرجل فرصة السكون المباغتة وجعل يقول:

«يبدو أن العدل يتوافر في الخريف كما لم يحدث في الفصول الأخرى».

فضحك الصيدلي وهو يجفف عرق رقبته قائلاً:

«أكثر الفصول إيماناً بشعار الاشتراكية والعدل في توزيع الأمراض».

فهمس السفرجل بصوت مسموع:

«ليت العدل لحق بقطار الوظيفة».

فعلّق الصيدلي وهو يعيد زجاجة دواء كانت أمامه إلى مكانها على الرف من خلفه:

«ولهذا يدفع الموظف ثمناً لأنه لا يتخذ القرار الصائب منذ البداية، أن يعمل حراً ذلك هو القرار الصواب».

كان التعب قد ابتدأ يظهر على السفرجل بعد تلك الجولة الواسعة في المدينة القديمة، وقال:

«أهو طقس الخريف أم طقس العمر؟».

وردد الصيدلي بآلية:

«خريف العمر، خريف العمر».

وأضاف متسائلاً بقوله:

«أهي كلمة مهذبة لمصطلح الشيخوخة؟».

وابتسم السفرجل وهو يقوم متوجهاً إلى رف زجاجي قريب كان قد ألفه من قبل ليتناول علبة منه ويقول بصوت مسموع مخاطباً نفسه:

«حبوب الضغط باتت ملازمة لنا كالماء والهواء».

فقال الصيدلي بينما كان يقف على ساقيه مستقبلاً زبوناً وافداً:

«أنواع كثيرة من هذا الدواء تظهر وتغيب، وكأن الضغط بات لعبة الكيميائيين في المختبرات».

وعندما عاد إلى السفرجل سمعه وهو يتمتم:

«زمن الضغط. خريف العمر. مدينة تتسرطن. أحجيات لا بد من حل لها!»

واستمر الحديث قائماً بين الرجلين بالرغم من تجاوز وقت الإقفال المقرر، وعندما نظر الصيدلي إلى ساعة الحائط هبَّ واقفاً يستعد للرحيل فجاراه السفرجل وهو يقول:

«لا بد من العودة إلى صمت البيت مهما دار الحوار بين الناس».

وكانا قد استعرضا أحوال البلد وأهله وشح مطر السماء في الموسم السابق وهو يمنح الأرض عطشاً لسنوات متتابعة، واختصرا الحديث عن الاقتصاد بالركود. تحدث السفرجل عن تزايد السكان في المدينة والهجرة العمياء إليها وعن تزايد النشاط الجنسي بين الناس، وأشار إلى اختلاط الهواء البحري بالرياح الصحراوية بعوادم السيارات. تحدثا، فيما كان الصيدلي يغلق الباب من خلفهما، عن الروائح التي تتصاعد من مجرى (قويق)، فلا تقوى عليها أزهار الياسمين المنتشرة. وقال السفرجل قبل أن يفترقا:

«أهي المدينة نفسها التي زرعت أشجار النارنج والكبّاد في فسحات بيوتها الداخلية، وزرعت شجيرات الفل والتمر حنة؟ أهُم الناس ذاتهم وكانوا يعطرون مياه الشرب بماء الزهر؟».

وكان الصيدلي يقول:

«أهو وقت تناول الطعام مع العائلة، أم هي فرصة لسدّ النفس يا رجل؟».

إلا أنه لم يكمل شكواه وهو يشير إلى صبية كانت تمرق مسرعة على الرصيف المقابل، ويقول:

«أرأيت تلك الفتاة؟ إنها الجيل الثالث من اللاجئين الفلسطينيين الذين جاؤوا إلى حلب بعد الهجرة».

ومشى السفرجل بضع خطوات ملازماً له وهو يستمع إليه:

«انتقل زوجها من مخيم النيرب إلى هذا الحي بعد أن فقد ولديه اللذين التحقا بالمقاومة. وباتت تلك الصبية أماً ثانية لأولاده الباقين كأنه تزوج شبابها للتعويض عن نقص في العائلة لا تستطيع الأم الأصلية أن تفعله. ألا ترى أن المأساة قد تفرعت إلى تفاصيل أخرى؟».

فكان السفرجل يتابع غياب الصبية بينما يصغي إلى الصيدلي متابعاً:

«أبكتنا (فيروز) وهي تغني (سنرجع يوماً)، لكن الذي يثير المخاوف هو ما يحدث الآن في زمن الانتفاضة. هل سيرجعون؟».

وافترق الرجلان، بينما كان السفرجل ينظر إلى الفضاء بعيون زائغة، وإذا ما استقل الصيدلي سيارته جعل هو يمضي قدماً بأقدامه.

المسيرة البطيئة للسفرجل كانت أشبه بحامل لهموم الدنيا على كتفيه، إلا أنه يحاول في كل خطوة ألا يستعيد شيئاً مما رآه أو حفر في ذهنه. وقرر داخلاً الدار أن يشغل نفسه بإعداد وجبة سريعة متجاهلاً دعوة سابقة من خديجة لتناول الطعام مع عائلتها متعللاً بأسباب صحية وبأنه قد ابتدأ صياماً مستفيداً من غياب الزوجة فقبلت الابنة اعتذاره على مضض. ولم يستغرق وقتاً في المطبخ عاد بعده إلى الصالة الهادئة.

فراغ، البيت فراغ والعقل فراغ، فاستعطف المخيلة مكرهة لمقاومة الفراغ الطاغي. أطلت عليه أيام محاضرات الهندسة الفراغية في الكلية، إذ يمكن أي أمر أو قضية أن تدرك من خلال إسقاطها على

فراغ متخيل فتتحول إلى حجوم تعبر عن حقيقة أمرها، فكأن الفراغ وجد أصلاً لتحرك المخيلة في فضائه وتؤكد وجودها المادي بأشكال ملموسة. وكانت دروس الفراغية تلك من المواد التي يكرهها معظم الطلاب ويربطون تعقيداتها بوجه الأستاذ الصارم وبيده التي ترسم بالطباشير على اللوح الأسود خطوطاً متشابكة ومتوازية يصعب استيعابها على فهم كثير من الطلاب، إلا أنها كانت آنذاك متعة السفرجل التي ينتظر محاضرتها من أسبوع لآخر.

جعل يقضم الرغيف الذي ملأه بالجبن والخيار وهو يفترش الأرض ناثراً من حوله عدداً من المجلات المعمارية التي كان يحرص على تتبعها في سنوات عديدة من عمله في المؤسسة المدرسية ثم بدأ التماهل في شرائها إلى أن توقف نهائياً. كانت المجلات تلك زاده بالرغم من تعدد لغاتها التي لا يعرف منها سوى الإنكليزية. وجعل يتشاغل بتقليب واحدة منها، فوقف عند صورة بالألوان لمجمع سكني في ضاحية لندنية، وما لبث أن انتقل إلى لوحة تمثل ماكيناً لمحطة قطار كهربائي في مدينة فرنسية. تطلع بإعجاب مدقق إلى ملعب كرة في قرية ألمانية، فبدا له أن مدرجاته تتسع لسكانها وزائريها. ووقف ملياً أمام صور متفرقة لحي سكني كبير يقول شرحها إنه لعمال في جنوب السويد، وكانت أكواخه الخشبية تسبح في مساحة من العشب الأخضر وتتناغم ألواحها مع القرميد الأحمر الذي يحمي أسقفها، فتمنى السفرجل لو أنه كان عاملاً في مجتمع كهذا. كانت الدهشة قد تملكته من قبل، وهو يتابع تطور فن العمارة في أنحاء كثيرة من العالم يسابق الزمن ومخيلة معظم المهندسين الذين عرفهم في عمل أو قول.

صور ومخططات، ألوان تخطف البصر وخطوط تنتظم فوضى الروح. أشكال لعمائر تسابق في جمالها اللوحات الفنية المشهورة

وهي تمنح الناظر إليها شعوراً بسموٍّ لا حدود له. فراغات تجتذب العقل كي يندفع بعيداً في فضاء التخيل. وكان السفرجل يتابع تقليب المجلات القديمة، فإذا بها ما زالت تحافظ على ما هو أبعد من الحداثة، فشعر بنفسه كأنه يفاجأ بها كمجلات جديدة اشتراها لتوه. لعبت الغيرة بأعصابه التي تحفزت وهو يقلب الصفحات كمسحور. قال لنفسه وهو يشيح ببصره عن المجلات المتناثرة:

«لَمْ يسبقنا التطور فحسب، بل تجاوزنا بسنوات ضوئية».

وعاد إلى بساط المجلات بعد قليل. تلك الأكواخ الأشبه بقصور صغيرة خرجت من سفوح جبال صخرية، هي في الحقيقة فيلات أنيقة صممها الأميركي (فرانك لودرايت)، فكانت الخطوط البسيطة التي رسمتها الألواح الخشبية تشكل مع مساحات الزجاج الهائلة جسد البناء المتماسك كنتوء كوني. وقام السفرجل برحلة في داخل كوخ فكانت خطواته تستجيب إلى لهاثه متنقلاً بين طبقة المعيشة والطابقين اللذين ارتفعا فوقها، وكمن يستقصي آثار اللمسات الساحرة لمهندس المكان، جعل يتمتم:

«هل أحسد المصمم على حريته، أم أشعر بالغيرة من الساكنين؟».

وقعت يده على مجلة فرنسية جعل يقلب فيها إلى أن وقف عند تحقيق واسع عن كهوف (مطماطة) التونسية. ثقوب كبيرة في الصخر الرملي أشبه بخلايا قرص العسل وقد تناثرت على سفح جبل أجرد خرج من الصحراء علامة على صلابة متفردة. أي سحر نبت في مخيلة شعب بدائي حفر بأياديه بيوتاً له يأمن إليها كحضن أمٍّ لا تشيخ؟ تساءل السفرجل:

«من يقول إن عمارة كهذه يمكن أن يصنعها شعب بدائي؟»

وتحدث بصوته إلى نفسه بصوت مسموع:

«الأمريكي أخرج من السفح نتوءاً سكنياً مهيباً، والبدائي استحدث رحماً له في جوف الصخر يعود إليه طلباً للأمان. وهكذا كانت المسافة بين ثقافتين متباينتين، إلا أن المخيلة الخلاقة التي لم تتوقف عن التدفق إلا عند أمثالك، قد جعلت من الثقافتين متساويتين في الإبداع».

وغاب وجيع همسه في أرجاء الغرفة بالرغم من أن جدرانها كانت تصغي إليه.

لقد عثر فجأة على المعلم (لوكوربيزييه). كان يقلب مجلة فتوقف عند ملف أُعِدَّ عن المهندس الفرنسي الكبير وقد فتح بوابة منفردة له في معسكر الإبداع العالمي. وكان لوكوربيزيه قد عمل بهدوء واثق على تأسيس مدرسة سيلتحق بها مئات المعماريين في كل مكان فيستحق لقب المعلم بجدارة ويصبح علامة بارزة أخرى في مسيرة العمارة الحديثة. قال السفرجل كأنه يخاطب جليساً أمامه:

«المعماري الجيد هو المعلم في مدرسة أحدثها بنفسه، وهو الوحيد الذي يداوم في صفوفها إلى يوم يرحل، إلا أنه مع ذلك يسمح لغيره أن يأخذ عنه ومنه».

وطوى المجلة مسنداً ظهره إلى المقعد القريب الذي سحبه إليه وأغمض متيقظاً. حدق بعد قليل في الفراغ، وما لبث أن عاد إلى مجلاته يرعاها بأنظاره وتقليب صفحاتها. وبدت له واحدة أنها الأكثر حداثة من بقية المجلات من خلال تاريخ صدورها. فوقعت عيناه على صورة كبيرة لمتحف صممه السويسري (ماريوبوتا)، وكانت كتلة التصميم الضخمة من حجر وردي توحي بأنها انفصلت كما هي عن تل صخري شامخ لتنافسه في جلالها. وكان

المتحف في نهاية المطاف أشبه بمعبد وثني خلفته حضارة بائدة، وظهر المصمم كمليل لأسرة فرعونية محترفة. هتف السفرجل وهو يميل بجزعه ليقترب من صورة المتحف:

«كأنه سباق التتابع. جيل يأخذ عن جيل سبقه، فيركض بإبداعه في البراري الكونية محدثاً ضجة الخلق الفريدة».

وكان قلب السفرجل يخفق كعاشق نأت عنه حبيبته.

وتتجمع عيون الطلاب كسرب نحل حول الأستاذ المربوع القامة تحاول أن تمتص من معلوماته المتدفقة. كانوا يصغون أبداً باهتمام إلى المحاضرات التي يلقيها الأستاذ حول نظريات العمارة وتاريخها، يسجلون الملاحظات ويكتبون أهم الأفكار كأنها أمثال في الحكمة. وكان معين من بينهم الأشد حرصاً على تدوين أكبر قدر من الملاحظات الجانبية المستنبطة من أقوال المحاضر، فقد كان أستاذ تلك المادة الأكثر اجتذاباً للاهتمام والمحبة والتقدير من بين الأساتذة الآخرين، وكان الإصغاء إليه أشبه بالتفاف أهل مقهى شعبي حول حكواتي ساحر. قال الأستاذ ذات مرة:

«جاءت النظريات عقب الجهود الإنسانية المتراكمة في البناء وليس بعدها».

وكان قد قال:

«كانت الجهود تؤكد على نزوع الجنس البشري إلى البناء لا الهدم، وهو عمل أخلاقي دون ريب ويعبّر عن الرغبة الدفينة الهادفة إلى الاستكمال المتواصل للتوازن في الطبيعة».

ولطالما قال بأشكال مختلفة ما معناه:

«مستقبلكم كمهندسي الغد رَهنٌ بالنيات الصادقة في الإعمار

الخلاق، ولا تشكل معرفة النظريات السابقة سوى الذخيرة الأم التي ستضيء لكم الطريق الذي تشقونه وفق عملكم».

وأجاب عن تساؤل طرح عليه بقوله:

«لن يُكرهكم أحد على اتباع نظرية ما، إذا ما استطاع الواحد منكم أن تكون له طريقته. هذا ما يجب للمعماري أن يكون إذا ما كان فناناً».

وكان السفرجل يستعيد بحنان أيام الحيوية في الجامعة. أفكار مدهشة، حوارات متنوعة في الثقافة والسياسة، معارض فنية. وتيقظت فجأة أيام المعرض المشترك لمشاريع التخرج التي انتشرت على طرفي الممر الطويل في المبنى القديم. ووقف السفرجل كالديدبان أمام لوحات مشروعه، فكانوا يمرون به يمسحونه بعيونهم دون تأمل عميق ويمضون مبتعدين دون اهتمام لائق بجهد طويل أو تعليق فيه انتقاد أو مديح. يومان مرّا دون أثر يذكر لمشروع السفرجل في نفوس الزائرين بالرغم من نيله التقدير من لجنة التحكيم ومباركة أستاذه المشرف. في اليوم الأخير اقترب منه كهل تقدم ببطاقة معرفاً نفسه بلغة فصحى تسترعي الانتباه لسلامتها، وكان زائراً ألمانياً من المهندسين الذين استهواهم الشرق بحثاً عن إلهام، وكان ــ كما قال ــ قد أمضى وقتاً يوم البارحة يتأمل مشروع الجامع، إلا أنه لم يقابل المصمم شخصياً للاستماع منه إلى توضيح كامل، وها هو، وقد حظي بالمهندس، يريد الحديث بشأن المشروع. وكانت تلك الساعة التي قضاها السفرجل في الحديث عن مشروعه مع الزائر الألماني واحدة من أسعد لحظات حياته التي لم تتكرر بعد ذلك. كان الجامع يمتد على مساحة تمدَّد من حولها بساط أخضر يضم نوافير في الأركان الأربعة وأشجار لا ينتظمها قانون فبدت كحراس على واحة

من جنة متخيلة. وظهر البناء الرئيسي للجامع بأضلاعه المربعة كأنه المبدأ الذي سينتشر في مربعات الأبنية الأخرى والمساحات الخضر والنوافير. وتوجت البناء المركزي الأصم كمبنى الكعبة قبة معشقة بالزجاج تفتح لقاعة الصلاة الكبرى كوة هائلة تتواصل مع السماء وتمهد الطريق للأدعية والابتهالات أن تتصاعد إلى الفضاء كالحمام المتحرر تطلب الرحمة والغفران. وقامت أروقة في الاتجاهات الأربعة لتصل بناء الصلاة والعبادة بمكعبات أصغر تمثل تكراراً متجانساً معه، وكانت المكعبات الأربعة تمثل مباني المكتبة وقاعة المحاضرات وصالة الاستقبال للمناسبات الخاصة الكبرى، وكان المبنى الأخير قد خصص لنشاطات الشبيبة المختلفة والمتعلقة بكل اهتماماتهم العقلية والروحية. قال المهندس الألماني:

«بات واضحاً أنك استوحيت تصميمك هذا من فكرة الكعبة المقدسة، وبظني أنها رؤية تشير إلى الاستفادة الخلاقة من التراث التاريخي للعمائر الدينية».

ثم هتف متسائلاً:

«ألا تعتقد أنك ذهبت بعيداً في خروجك عن المألوف في بناء الجوامع؟».

وأكمل هتافه بتساؤل آخر:

«ماذا عن المآذن المعروفة عبر تاريخ الإسلام الطويل؟ إذ لم يؤكد مشروعك عليها، وكما نلاحظ في كل الجوامع والمساجد في العالم الإسلامي الممتد في أرجاء الدنيا».

واستفسر بقوله:

«أتراه يسمح لمثل هذه الأفكار بأن تتجسد في مجتمعكم!».

فأجاب السفرجل، وقد غلبت عليه الحماسة:

«أول دعوة إلى الصلاة قام بها المؤذن بلال من فوق سطح. التاريخ يا سيدي هو الذي أشار إلى ذلك».

وقال السفرجل شارحاً:

«ما عاد المؤذن الذي يدعو المصلين يومياً بحاجة إلى صعود درج المئذنة العالية. لقد باتت الأجهزة تنقل الدعوة من موقع المؤذن على الأرض، فالمئذنة باتت رمزاً أكثر منها فعلاً. وهكذا باتت الأمور أسيرة التكنولوجيا الحديثة التي تتحكم في تعاملنا مع الماضي والمستقبل. لقد استجاب تصميمي لما يجب أن يكون عليه التطور، لذا عبرت عن المئذنة بتكوين رمزي تجلى في أبراج تحيط بالقبة المزججة فظهرت في المشروع كأنها اختزال لفكرة المئذنة».

وكانت الأبراج الأربعة تشكل نتوءات بارزة تتناغم مع فكرة المكعبات الصلبة البناء كما يجب للإيمان أن يكون. قال الألماني بعد صمت طويل:

«ستكون ذا شأن أيها الشاب. شجاعة التفكير هي من صفات مهندس المستقبل».

وكان السفرجل مفترشاً الأرض يستعيد إطراء الألماني الذي لم يغب عنه طوال السنين التي أكلت عمره. ويبدو أن ذلك الحوار القديم بين شاب شرقي وكهل غربي هو من قلة من الأحاديث التي ظلت تسكن أعماق معين السفرجل عبر الأيام المتابعة برتابة طبل يستيقظ بين حين وآخر.

6

بدا للسفرجل أن الاسترخاء على المقعد هو بمثابة الراحة من عناء معركة المجلات. وتابع الأخبار في التلفزيون من جلسته المتراخية، إلا أن الصور والتعليقات اللاحقة حفزته على الاستواء في مقعده والإصغاء باهتمام. لذا فقد أعد الشاي على عجل عائداً إلى مكانه يتابع صور القتل على الشاشة الصغيرة. عيون ذاهلة نسيت الدموع، وأبنية القدس الجليلة تُثقب برصاص مجنون. أطفال يتضورون موتاً على الطريق العراقية. حداثة تكنولوجية تزحف على عالم تقليدي ما زال يجاهد من أجل البقاء. وكانت يده تلاعب الريموت كونترول فيتنقّل المحطات من مكان إلى آخر كساحر. ولم تستطع مقدمة مسلسل محلي أن تبقيه في مقعده، فأقفل التلفزيون وعاد إلى افتراش الأرض يستعيد مجلاته، فلم يعد هناك من صوت في الغرفة سوى خشخشة الأوراق المستلمة لتقليب السفرجل:

رحلة جديدة مع (أوسكار نيماير) في مدينته المعاصرة التي صممها

ووضع أسس عمائرها. مدينة (برازيليا) العاصمة الأحدث في الكون المعمور، باتت صورها تراقص على إيقاع (السامبا). قال هامساً:

«الحداثة التي سحقتك يا ابن السفرجل من قبل، ها هي تفعل الآن».

وتابع السفرجل يحادث نفسه:

«تُرى ما سر الخلق الفني يتفجر عند ناس بعينهم دون غيرهم من سائر البشر؟».

ويقلب الملف المتعلق بالمعماري البرازيلي يتابعه كمراهق أدهشته نصوص في الحب يشاركها في جوهرها بينما يعجز عن قول مثلها. وتوقف عند صفحتين أظهرتا الخربشات التي بدأت بها أفكار المهندس نيماير في التكون، بينما الصفحات الأخرى كانت لمخططات تنفيذية وصور تبرز كمال المشروع.

وأغمض السفرجل لدقائق حسبها ساعات، وما لبث أن طوى المجلة وهبّ واقفاً يجول في المكان ويلف حول نفسه كدرويش مولوي. ووجد نفسه يقطع المسافات بين أرجاء الدار كضائع لا يعرف معنى لهذه الجولة المفاجئة.

عاد إلى الأرض من جديد، واختار مجلة من الورشة التي امتدت على مساحة أمامه، وقد احتوت على عدد من الدراسات والوثائق المتعلقة بـ(سنان) الذي لمع أيام الإمبراطورية العثمانية ووسم بأعماله المعمارية حقبة من تاريخها. جوامع وقصور ما زالت قائمة في الأرجاء الواسعة لحكم آل عثمان.

«يذهب السلطان بعيداً في حلزون التاريخ ويبقى رجال من أمثال سنان».

وقال السفرجل أيضاً:

«وأنت ما الذي فعلته؟ تتحول إلى مراقب بناء ترفض أن تكون إياه أصلاً! لقد أُعِد لك السقوط في الحلزون».

ويعاود تقليب الصفحات كعجوز تتفحص الملابس في صندوق عرسها.

«هل حان الوقت للنبش في صندوقك الممتلئ بالخيبات والآمال؟».

وكان السفرجل ملماً بتفاصيل مجلاته إن لم يكن قد سكنت عقله بمواضيعها وصورها الكثيرة، فهو يعود إليها إذا ما اشتد عليه القلق والغضب من عمله، فهو كثيراً ما كان يحمل واحدة منها ليضعها أمام الزملاء في المكتب فيدل على صورة أو مخطط فيها كأنه يقول لهم:

«انظروا ما الذي يحدث في العالم».

وكثيراً ما صدّه المديرون الذين تعاقبوا على المؤسسة كأنهم يجمعون على رأي واحد:

«هذا بلد غير بلدنا، أو تلك ثقافة غير ثقافتنا، وظروف الشعوب يختلف بعضها عن بعض»،

فيرتد خائباً حاملاً مجلته كمؤلف رفضت دار نشر عمله الذي أمضى وقتاً طويلاً في إنجازه.

ما زال السفرجل يذكر ما حدث له ذات مرة، وقد جاء بكتاب صدر حديثاً، فالتهم قراءته وأحس بأنه فائدته يجب أن تصل إلى الآخرين. كان الكتاب قد أعدته مجموعة من المهندسين عن أعمال

المعماري المصري (حسن فتحي) تكريماً لجهوده في تعميق نظريته في السكن الشعبي. جعل يشرح بحماسة أهمية الكتاب والنظرية لمن حوله كأنه واحد من الذين ساهموا في إظهار الكتاب، فجاء حديثه كمحب أمين. كانت انطباعات الزملاء متباينة، إلا أن الدهشة لم ترتسم على أي من الوجوه، فعاد السفرجل حاملاً خيبته إلى البيت لتقابله زوجته بأخبار البنات ومشاكلهن وبقائمة من احتياجات العائلة وبهموم الوظيفة التي كانت تعمل فيها، فما لبث أن أعاد الكتاب إلى ظلمة الأرفف ليعاني وحدة المكتبة.

ولم يكن الرغيف الذي أعده وجبة للغداء كافياً لدفعه إلى قيلولة الظهر المعتادة، فقاده نشاطه إلى خزانة ليخرج منها حقيبة جلدية ظهرت على سطحها شقوق صغيرة. أخرج أوراقه التي وضع عليها أفكاراً ورسوماً واسكتشات كثيرة، وكان يبحث عن صور مشروع تخرجه، وقد حافظ عليها كموروث ثمين. كان في بحثه يتوقف من حين لآخر عند واحدة من تلك الأوراق يتأملها. وقد ظهرت له أوراق فيها رسوم بالقلم الرصاص لقباب طينية كان لها علاقة آنذاك بحلم دار في رأسه. كيف يمكن تصور تلك الأكواخ التي زرعت كبذور في طين الأرض لتتفتح عن انتفاخات حمت الفلاحين من برد الشتاء وحر الصيف آلاف السنين، وكيف يمكن معماراً أن يجعل منها بيوتاً معاصرة دون المساس بشكل تكوينها وأساس موادها ويحفظ لمعمارها الأول حقوق عبقريته. ويقلب في أوراق مشروعه الريفي ليتخيل الخطوط الأولى قد اكتملت ليحقق حلمه. لقد راوده ذلك الحلم في شبابه لتكون لزوجين شابين أو أسرة محدودة الدخل دار تحنو عليها في إيوائها وتساهم البيئة بترابها وقشها في تأمين سكن باتت بوادر الحرمان منه أزمة مستحكمة. وهكذا حافظت حقيبته الجلدية على مخططاته وأحلامه المعمارية

حبيسة الظلمة كأنها متهم حكم عليه بالمؤبد رغم عدم اكتمال الأدلة. وابتسم السفرجل ساخراً يحادث نفسه:

«أنا الذي حكم عليّ».

كانت الحقيبة التي حفلت بالمشاريع النائمة كأهل الكهف بلا أمل في العودة كما الأسطورة، قد باتت مع الزمن صندوقاً مخفياً لذكريات منسية في ظلمة لا ترى النور إلا في مناسبات التحمر، وهكذا تعودت الإهمال فلا يثيرها كشف مؤقت عنها، فأصبحت كمصباح علاء الدين لا يُفرج عن جنّيه مهما فركته اليد. وعندما عثر السفرجل على صور مشروع التخرج قام بنشرها على سطح طاولة واطئة وهو يتأملها كما كان يفعل مع طفلة من بناته. وتذكر فجأة أمراً فأحضر من بين مجلاته واحدة بعينها. جعل يعاين الجامع الذي صممه (باولو بورتو غيزي) في روما وقد فتح صفحات المجلة بالقرب من صور مشروعه. وراح ينقل بصره بين الجامعين في موازنة يحث عنها، وكان يعلم سلفاً أن المقارنة ظالمة، إلا أنه أصر على التحديق المتناوب في الشكلين بحثاً عن مدخل يؤدي به إلى اكتشاف شيء لم يعرفه من قبل.

كان مشروعه الذي تتكون أجزاؤه من سطوح صماء تنفتح فيها أجزاء للنور، وكأنها الحجر يبتهل إلى ضوء السماء في فتحات تتناغم في ما بينها كسلم موسيقي ينتظم إيقاعات الأدعية والابتهالات. وكان تصميم الإيطالي الحافل بالعقود والزخارف التي مثلت مع تيجان الأعمدة الهائلة نموذجاً لحضارة غنية في تعاليها. وقد بدت له في تلك المقارنة العجيبة حقيقة الصراع الحقيقي بين ثقافتين مختلفتين، وبالرغم من اعتراف السفرجل الضمني بأهمية المعمار الإيطالي وتمثيله المدهش لأصول الرفاهية وتحققها في الزمن

المعاصر، فإنه احتفظ لنفسه بحق إخلاصه للبساطة في الخطوط والحجوم، ولواقع الطقوس الدينية التي تصل العابد بالمعبود عبر الاستقامة في التعبير بأبسط الوسائل والطرق. كان السفرجل، وهو يتفحص مشروعه القديم، يحس بتواصل تكويناته مع فطرة الطبيعة التي طالما عبرت عن ذاتها في انسياب الجداول وتناغم الرمال في صحاريها وشروخ الجبال في صلابة صمتها وإيقاعات النسائم والرياح، وهو تماماً كما كان يشعر به أيام الجامعة. واختنقت حنجرته وعيناه بلهيب خيبة كاد الزمن أن يحيلها إلى شاهدة صماء على قبر أحلامه.

دقت الساعة أربع رنات ردّدتها الجدران، وكانت هي الشيء الوحيد الذي احتفظ به ذكرى من والده الذي قال إنه اشتراها من بلجيكي استوطن حلب فترة من زمن قضاه في إعداد رسوم عن مباني المدينة القديمة. فبدت الساعة كأنها تعطيه فرصة للراحة واستعادة الطمأنينة فأسلم جسده للمقعد من جديد، ووجد نفسه يقلب في صفحات الفضائيات التلفزيونية، يتوقف عند محطة تظهر أعماق مياه البحر في خليج بعيد. كانت اللغة غير مفهومة، قدَّر أنها تأتي من الشرق الأقصى، بل هي لغة الماء وكائناته التي تعكس نشاط سيرك الأعماق المنار بأضواء مصور مفتون. مهرجان أسماك بديعة الألوان تحيي حفلاً راقصاً في حقل أعشاب بحرية، وبدا أخطبوط صغير بأذرعه الثماني كأنها عصيّ لقائد موسيقي شيطاني كي يضبط حركات الراقصين على أنغام التيارات الجوفية التي تحرك الأعشاب المتمايلة وهي تتمايل مع الأسماك المتقاطرة على الساحة. ويظل المشهد مستمراً في أداء فني يشد الروح إليه لتعرف أيضاً في بهجة الأعماق التي أنعشتها حيوات لا يعرف عنها الإنسان إلا قليلاً.
وانتفض السفرجل في مقعده فجأة وهو يرى إلى اقتحام مباغت

لوحش القرش الأبيض يهاجم الأسماك بفكّيه المفزعين.

«هل انتظر المصور لحظة كهذه ليجعل من هذه الوثيقة البحرية عملاً درامياً، أم أنها طبيعة الصراع التي تصرّ دوماً على أن تكون هي الحقيقة الكبرى التي لا مهرب من إنكارها. ابتلع الوحش خصومه بصمت شرس».

فتساءل السفرجل من جديد:

«ومن الذي ابتلع حلمي؟».

عاد إلى الأرض. فتح مجلة بعيدة عنه، فتنبه إلى ريبورتاج عن المهندس الياباني (كينزو تانغي) الذي تمازجت عمارته الجليلة كآثار حقيقية مع نظراته الساهمة في سماء الماضي. ووجد السفرجل نفسه وهو ينحي المجلة جانباً ويتحدث هامساً كقاضٍ يقرّع متهماً:

«لِمَ استسلمت يا معين، فخسرت؟».

وتابع نشيجه الخفي:

«براعة القدر في إنزال الخسارة لا يعادلها في القوة سوى الإنجاز الكبير».

وابتسم كبائس:

«لقد ربحت في الخسارة يا معين».

وتساءل مرمياً بجسده على البلاط:

«ما رقم الحرب التي خضتها؟ أهي الأولى والأخيرة في آن؟ أم هي الحرب التي لن تعلن رقم ترتيبها في حياتك بجدول لانهائي من

الخسائر؟».

وأغلق الرؤية على نفسه في استلقائه، فتسللت إغفاءة النهار إليه كسديم يسبح فيه بلا حركة، فبدا لنفسه أشبه بلوح خشبي تتناقله موجة إلى أخرى، وإذا ما ارتطم اللوح بصخرة خرجت من الماء فجأة، تناثرت أجزاؤه كأنما الخشب يتحول إلى زجاج هش. وتنبه مستيقظاً بينما عيناه تلاحقان النثار المتطاير في فضاء الغرفة ليملأه في محاولة لطرد ضوء النهار الذي بات يميل إلى الغياب.

وقدمت فاطمة من أعماق الضباب في المكان. كانت تقطع بخطواتها الواثقة طريقاً لا يتحرك. مشت وظلت تمشي والسكون الذي يرافقها يتحول ببطء إلى مغناطيس ينجذب إليه دون مقاومة. انتهت رحلة فاطمة لتصبح قريبة من زوجها وهي تتابع حديثاً بدأت به من قبل:

«وإلى متى يا معين يمكنك أن تستمر هكذا؟».

وسمع صوتها يقول:

«ما من موظف في الدولة إلا ومصيره الخروج منها».

واختلط قولها مع يدها تمسح على شعره:

«ألم أكن مثلك أيضاً؟ وها أنذا أمامك أعيش حياتي. البنات بحاجة إلينا، وهم العزاء الوحيد يا معين. نحن بحاجة إليك».

وسمع صوتها يردد:

«التقاعد طمأنينة».

هتف السفرجل عاتباً:

«الطمأنينة تكون في تحقيق الحلم، وقد ضاع الحلم دون أن يتحقق شيء منه».

واستوى في جلسته، ثم هب واقفاً على قدميه يقيس أرجاء الدار ليبقى شاهداً وحيداً على فراغ محدق به من كل فتحة.

7

كانت الحسكة تعيش أحلى لياليها، فالخريف في هذه الأيام يسفر عن عذوبة بداياته في رقة النسائم التي هبت على المدينة وفي اعتدال الطقس الذي طالما تأرجح ما بين جحيم القيظ وبرودةٍ تنخر العظم. وفرغت فاطمة من مرافقة البنات إلى أُسرَّتهن بحنان جدة تحكم الغطاء عليهن بذكريات أمومة تسكنها وبمباركة القبل متمنية للزهرات أحلاماً هانئة. وعادت إلى ابنتها عائشة التي كانت مشغولة بإعداد دروس الغد، وكان الموسم الدراسي قد ابتدأ منذ أيام يدفعها إلى مزيد من العمل. احتضنت فاطمة الابنة من ظهرها كما كانت تفعل أيام الجامعة، وجعلت تهمس في أذنها:

«كتب عليك يا حبيبتي ملازمة الكتب وبذل جهدٍ دائم».

فابتسمت عائشة وهي تتابع القراءة من وراء مكتبها الذي تكدست عليه أوراق وكتب، وقد زادها الحنان طمأنينة فاستمرت في عملها

المسائي.

وتصدرت الجدار صورة رب الأسرة الراحل، وكانت عينا (نزّال) ما زالتا تومضان برعاية قبيلة النساء كما كان يصف دوماً العائلة الصغيرة. وكانت عائشة قد نقلت طاولة المكتب إلى الجهة المقابلة للصورة كي تكون لها الفرصة متاحة دوماً للنظر إليها عندما تزيح عن وجهها عدستي القراءة وتغرق في وجه الحبيب. وكثيراً ما كانت تستعيد الأيام السابقة من زمالة في كلية الآداب وحرارة فترة الخطوبة الغنية وعذوبة أيام الزواج السعيدة. وكانت مألوفة تلك اللحظات التي تستعيد فيها عائشة أيام الهجوم الشرس للمرض اللعين فتدمع عيناها وتغرق في حزن ألفت قبيلة النساء غيومه.

كانت فاطمة تتشاغل بطيّ الملابس النظيفة وترتيبها بعد أن جمعتها عصراً من منشر الحديقة الخلفية. ووقفت أمام طاولة المكوى تتلمس حرارة المكواة الكهربائية، وجعلت تقول بصوت مسموع:

«تركت لوالدك ما يكفي من القمصان والملابس الداخلية».

وجعلت تحدث نفسها فتسمعها عائشة دون تعليق:

«لن يحتاج في غيبتي إلى شيء».

واستمرت في الكلام بصوت ارتفعت طبقته بشكل ملحوظ:

«الرجال عندما يكبرون، بحاجة للعناية كالأطفال، إلا أن والدك يحاول دوماً أن يعتمد على نفسه، وأنا أقدّر فيه ذلك».

وانطلقت عائشة بالكلام فجأة:

«أحس بالذنب لأنني أتسبب في بقائه وحيداً. أنا الملومة».

فأجابت الأم تخفف عنها:

«لا تنسي أن خديجة وصفية قريبتان منه».

وأضافت وهي تمسد ثوباً لأصغر البنات:

«في الفترة الأخيرة بدا أنه يفضل الوحدة».

وتركت عائشة مكتبها نحو أمها لتقول لها:

«تلك هي المشكلة. الوحدة مؤلمة لرجل في مثل وضعه».

وتابعت فاطمة تحريك المكواة بعصبية وهي تقول:

«ازدادت رغبته في العزلة مع تركه العمل. كنت أراقبه ولا أملك فعل شيء».

وهتفت مضيفة:

«أنا تركت عملي أيضاً، وكان ذلك بإرادتي، وها أنذا أمامك لم أتغير ولم أشعر بالوحدة».

ثم أعقبت كمن تذكر أنها يجب أن تعود إلى طبيعتها الصارمة:

«ما من وظيفة إلا ولها نهاية يا ابنتي، والتقاعد هو قدر الموظف كتب عليه منذ البداية».

انكفأت عائشة على نفسها متراجعة إلى مكتبها. جلست قليلاً وراءه، ثم ما لبثت أن طوت كتابها وجعلت تعيد ترتيب الأوراق والأقلام وتنظم الكتب. أعلنت بإشارة من يدها انتهاء عملها وقالت:

«يحزنني أن محبتنا لوالدي لم يتحقق لنا التعبير عنها بشكل لائق.

الدراسة الأولى ثم الجامعة، وجاءت أيام العمل والزواج لتقف حاجزاً قاسياً أمام تعبيرنا عن الحب الذي نحمله له».

واسترخت عائشة على الأريكة التي شهدت صحبة لا تنسى مع زوجها، وقالت تحادث السقف:

«لم يسأله أحد منّا ذات يوم عن عمله في المؤسسة، عن همومه».

فقالت فاطمة وهي تتخذ لها مقعداً مواجهاً:

«اختارت صفية مهنة والدها. ألم يكن ذلك نوعاً من التكريم له واهتماماً به؟».

فاستوت عائشة جالسة وهتفت:

«أي تكريم يا أمي! وصفية المسكينة ألم تصبح أشبه بموظف عادي دون مؤهل!».

وقالت بأسف واضح:

«أليست تعاسة، بعد سنوات الدراسة الطويلة، أن لا تمارس صفية مهنة المهندس كما يجب؟».

قالت الأم بصرامتها المعهودة:

«تزوجت من تحب، وحياتها سعيدة».

وهتفت بصوت ضعيف:

«لو أنها ترزق ولداً!».

وانعقد لواء الصمت، وكأن المرأتين التزمتا بمعاهدة ثنائية وقّعتاها بإطراق الرأس. كانتا تتشاغلان بسكون يخفي ما وراءه من غليان

عندما قطعت عائشة حبل الفراغ الذي امتد بينهما، قالت:

«كانت أيام السنة الأخيرة عصيبة».

سلّمت فاطمة بقولها:

«حقاً كانت الأيام عصيبة».

هتفت عائشة بتحسّر لوّن الغرفة بالعتمة:

«مرض نزّال، آلامه التي لم يستطع حبٌّ أو حنان إيقافها. احتضان البنات والعناية بهن. واجب التدريس مع إخفاء أحزانك أمام الطلاب. المسافة التي تبعد الحسكة عنكم في حلب. كل ذلك حرمني القرب منكم.. من أبي الذي كرّس حياته لنا».

وقامت إلى فاطمة تحتضنها وكأنها هي الأم لا الابنة المفجوعة، وجعلت تهمس في أذنها:

«أحس بنفسي أكثر حظاً من بناتي، فأنا في أبسط الأحوال أسمع صوت والدي على الهاتف وقتما أريد».

وقالت وهي تتخذ لها مكاناً على مسند المقعد:

«عرفت قيمة الأب في الحياة عندما رحل عنا نزّال».

وحدثت نفسها وهي تنسحب نحو الأريكة:

«تُرى هل يمكن البنات أن ينسين صوته؟».

وجعلت تتمتم وقد عادت إلى الاسترخاء:

«الصوت الرقيق يغني للبنات بصوته العذب فيغفون كالحمامات».

وقامت الأم لتأخذ مكاناً بالقرب من ابنتها، فاحتمت عائشة بالحضن الذي أفسح لرأسها المجال تدفنه فيه، فبللت الدموع ثوب فاطمة التي جعلت تمسح على رأس ابنتها بحنان بائس، وهي تردد:

«هو القدر يا ابنتي المسكينة».

وكانت الدار قد أحيطت بأرض نسيت الرعاية اليومية بعد أن كانت ملعباً لأزهار وشجيرات متنوعة، وكان الزوج يشرف عليها بنفسه لتصبح جنة صغيرة تحتضن البناء. وكان الراحل قد ورث الدار الواقعة على حدود المدينة من والده المزارع الذي اشتهر بين أهل المدينة بعنايته الخاصة بحقول القطن الواسعة التي يدير ملكيته لها بخبرة طار صيتها. وقام الابن بتحويل البناء القديم إلى (مستعمرة للحب) يوم اتفق مع خطيبته على الزواج. كان نزّال قد قرر أن يعوّض على عائشة فراقها لمدينتها الكبيرة، فحوّل الأرض التي نمت فيها الأعشاب البرية إلى حديقة استقطبت حديث الناس وأنواع نادرة من النباتات، واعتنى بحوض خصصه لنباتات الصبار الذي يزهر مرة واحدة في السنة لتذبل بعد ذلك وردته البيضاء الضاربة إلى البنفسجي الشاحب بعد مرور ليلة قمرية. كان للحبيبين مواسم متعاقبة من الأيام المفعمة بالسعادة، وقد جاء مولد البنات بترتيب شبه سنوي ليجعل للحب علاقة أكثر حميمية وهي تؤكد للحياة معناها وتنسي المرأة غربتها. قال نزال مرة لعائشة:

«هل تذكرين يوم تقدمت إلى والدك بطلب يدك؟».

«كانت لحظة ترقّب لا تنسى».

وقال نزال بمتعة:

«سألني ببساطة مدهشة: أتحبها أيها الشاب؟ وقال لي: الزواج

كالتصميم المعماري يصبح فناً عندما يكون الحب جوهره».

وقال نزال:

«هل تعلمين لِمَ أحب هذا الرجل الذي أنجب امرأة مثلك؟ لأنه حالة متميزة لم أسمع بمثلها من قبل».

وكان الزوج في أيامه الأخيرة من المرض الذي انتشر في أحشائه يردد:

«أتصور أن حبنا سيمنع عني فتك هذا الداء اللعين».

كان الليل الساهر، في أوله، فقررت عائشة أن تسدل ستاراً على الذكريات فتمنت على أمها تشغيل جهاز التلفزيون. وتعلقت عيونهما بمحطة تبث حواراً في السياسة. ومزق رنين الهاتف اهتمام المرأتين القائم بالبصر بعيداً عن السمع، وهرعت عائشة إلى الجهاز الصاخب لتسكته، فإذا بصوت أبيها يخرج منه، فهتفت سعيدة ترحب به، وكان معين يستفسر عن الأحوال، عن البنات، وتساءل ضاحكاً إن كانت فاطمة تعدّ لهم الطعام المتميز كعادتها. وخطفت الأم السماعة من يد عائشة لتستفسر منه عن انتظامه في تناول حبوب الضغط، وعن عنايته بسقاية النباتات في الشرفة الخلفية، وذكّرت زوجها بعدم نسيان فاتورة الهاتف التي حان موعد دفعها منذ أيام. واستعادت عائشة الهاتف:

«اشتقت إليك. البنات يسألون عنك دوماً. اعتنِ بنفسك فنحن بحاجة إليك».

وغاب صوت الأب، وقد غرقت حنجرته بدموع غير مرئية.

ومضى الليل في زحفه، فقالت فاطمة لابنتها:

«ألم يحن وقت نومك يا حبيبتي؟ دروسك غداً مبكرة».

«مازال الوقت مبكراً».

أجابت عائشة وهي في طريقها إلى الباب المؤدي إلى الحديقة. كان القمر الناقص قد فقد شيئاً من وزنه، فبدأ يميل نحو أفق الغياب تاركاً نوره في حالة ضعف لا تستطيع أن تقاوم ظلمة السماء. ولحقت الأم بها تحمل شالاً لتغطي به كتفي عائشة. جلستا متجاورتين على المقعد الخشبي الذي كان نزّال قد صنعه بيده. وكان قد قال لزوجته:

«أعددته ليتسع لنا نحن الاثنين ونستمع إلى همس الليل».

أشعلت عائشة سيجارة، فغضت الأم الطرف عنها، فلم تعمد كعادتها إلى التحذير من التدخين، واستمر الصمت ثالثهما رامياً بشباكه على المرأتين اللتين كانتا تحدقان في الفراغ، إلا أن صوت الصرصار ما لبث أن مزّق الشبكة، فدارت عيون الأم وابنتها في العتمة الشفيفة بحثاً عن مصدر الصوت وكأنه بات النقطة التي تنتهي عندها الأفكار، أو لربما هي التي كانت تثير الأفكار. كانتا تصغيان إلى الإيقاع المتواتر، فذهبت معه عائشة إلى أيام الجامعة، والحديث بين طلاب السنة الثانية يدور حول الزميل الخجول الذي يتكلم الإنكليزية كممثل في مسرح شكسبيري، بينما أصوله الحسكاوية تنفي التصديق بذلك، ما لم يتكلم أثناء المحاضرة مجيباً أو متسائلاً فتتطلع الأنظار إليه تشارك إعجاب المحاضرين. وكان أستاذ زائر من جامعة لندن يعهد إليه بمهمة قراءة نص روائي أو مقطوعة شعر، آنذاك تتأكد للجميع دهشتهم. قالت عائشة بعد تعارف قصير وهي ترافقه إلى المكتبة:

«لا بد أن لك أصولاً إنكليزية».

فقال بهدوء جاد:

«أمي من العشائر، ووالدي مزارع ابن مزارع لم يترك الحسكة إلا في زيارة إلى حلب أو دمشق».

وقال:

«ومرة زار بيروت فلم يحتمل البقاء فيها أكثر من يومين».

ولكنه تساءل:

«أما أنت فأشك بأنك من حلب. ثقافتك ورقّتك وانفتاحك، كل ذلك ينبئ بذلك».

وعرفت عائشة أن الشاب الحكاوي أمضى فترة في إنكلترا لوقوعه في غرام لغتها، لكنها علمت أكثر عن حسّه الرهيف ومشاعره النبيلة، فأحست بسعادة غامرة وهو يسألها بخفر عذراء إن كان أهلها يتقبلون جرأة رجل مثله يتقدم بطلب يد ابنة غالية على قلوبهم، فقالت بدلال:

«على الرجل أن يسلك الطريق المستقيم فيتوجه بالسؤال أولاً إلى الابنة نفسها».

وقالت لنزّال:

«عندما تعرف معين السفرجل ستكتشف أنك لم تعرف أحداً يشبهه».

وتنبهت فاطمة إلى قول ابنتها الذي كان أشبه بمذيع يدلي ببيان

هام:

«بقي لنا والدنا، وعلينا أن نحافظ عليه بكل وسيلة».

أجابت الأم وكأنها تصحو لتوها من حوار مع نفسها:

«ولكنه يلقى الرعاية يا عائشة. ألا يكفي أن الجميع يفكر به؟».

وأكدت عيناها السابحتان في فضاء الليل أنها تفضل عدم الحديث عن زوجها، كما أن عائشة بدأت تستجيب لدعوة الذكريات، تاركة الفرصة متاحة لأمها أن تعود إلى ذكرياتها أيضاً.

طُلب من فاطمة أن تتزين في يوم له أهميته، فالنسوة زوار المساء من طراز خاص، وهكذا حفلت الدار باستعدادات خاصة، وحضر الخطّاب. وقدمت صورة كاملة عن الشاب معين. مهندس يعمل في الحكومة، وحيدٌ لأهله، لذا فلن يلتحق بالخدمة العسكرية، أحواله المادية جيدة، وإن كان المستقبل الذي ينتظره يبشر بتزايد حسّاده فهو من المتفوقين في الدراسة والمؤهل لاحتلال مراكز اجتماعية مرموقة، وهو مشهود له بالتهذيب بين أقرانه ومعارفه ولم تعرف له أذية أو خروج عن الآداب والخلق القويم. طلبت فاطمة أن يزورهم، فقبولها المبدئي جاء من أنها كانت تمضي لحظات حب أخيرة مع ابن خالتها الذي خان عشرة عمر ومحبة استمرت سنين، كانت تنتظر فيها أن يتقدم بطلب يدها، إلا أن سكرتيرة لعوباً خطفته منها. أذعنت فاطمة للواقع وللانطباع الأول فقبلت بمعين السفرجل زوجاً.

قالت عائشة في جلسة الحديقة:

«أعتقد يا أمي أن على والدنا أن يغرق في العمل الذي يحبه. ذلك هو الحل للخروج من عزلته».

فهتفت فاطمة وكأنها تكره العودة إلى الحديث نفسه:

«أي عمل يا عائشة؟ والدك الآن من المتقاعدين».

قالت عائشة في بحثها عن حل:

«مهنته تسمح له بأن يفتتح مكتباً يعيده إلى ما كان يحبه طوال عمره».

تأففت فاطمة في حديثها:

«مكتب في عمره؟».

وفي لحظة مفاجئة من توترها، قالت فاطمة بهدوء:

«ابتدأت حياتنا بنظام مرسوم من الإقدام والتفاهم والرعاية. كان والدك يبذل كل جهد لإسعاد الأسرة. هل تعلمين أنه من أرقّ الرجال. وبالرغم من أنه كان كثير التعلق بمهنته، إلا أنه لم يستطع أن يحصل على حقه في ترقية تليق به».

وتسلل غضب خفيف إلى حديثها:

«كان عليه أن يناضل بقوة، فمثله أو من كان أقل منه تفوقاً وموهبة بات مديراً عاماً أو رئيساً للبلدية أو ربما أصبح وزيراً».

قالت عائشة وهي تشدُّ على كفّ أمها:

«نريده بيننا، لا أن يكون مِلكاً لمنصب قد يفقد فيه الإنسان أحلامه الشخصية. يعيش بابا حياته بكل مشاكلها، ولكنها حقيقية، لأنه يمتلك حلماً، ومن يحافظ على حلمه حياً بداخله يستحق الاحترام في عصرنا هذا. أنا احترمه بحب لا حدود له، وأحبه باحترام يا

أمي».

ولبثت عائشة ساكنة في لحظات توهج لم تكشف عنه العتمة. قالت بحرارة بعد قليل:

«ألم تُحبَس روحه الخلاقة في وعاء تلك الوظيفة الضيق؟».

وقالت فاطمة بشيء من اللوم تسلل إلى كلماتها:

«كان يمكن أن يفعل مثل الآخرين، ويحتمي بغطاء».

فتساءلت عائشة:

«أن تكون له حماية! ألم يكن تمكنه من المهنة هو الحماية؟».

قالت الأم وهي تجول ببصرها في ظلام الحديقة:

«علمتنا الأيام يا ابنتي أن البيت بلا سقف هو بيت لا حماية له، كذلك البشر».

فهتفت عائشة بقولها:

«موهبة الإنسان، معرفته بمهنته، الأحلام التي تُنسج للآخرين، أليست هي السقف الذي يحمي؟».

فتأوهت فاطمة وهي تعدل من جلستها:

«لو كان هناك سند قوي، جماعة أو حزب يرعاه، لكان الأمر مختلفاً».

وأضافت بقولها:

«عاش والدك فترة وظيفته وهو يظن نفسه الأهم. حسب أنه قوي

كفاية ليحقق ما يريد، ولم يدرك الحقيقة المسيطرة ليلينَ في موقفه».

وتمتمت فاطمة:

«وهكذا تتحطم الأحلام يا عائشة».

فما لبثت الابنة أن صرخت بصوت مرتعش:

«لا يمكن الأحلام أن تتحطم يا أمي».

وهمست بضعف تبرقُ فيه آثار نشيج مقهور:

«أحلامي مع نزّال لم تتحطم بالرغم من غيابه عنا!».

وعاد الصرصار إلى إرسال لحنه المتقطع، فحسبته عائشة دعاء يائساً، وقالت فاطمة:

«أرجو أن لا تصل ضجة الحديقة إلى البنات في نومهن».

وهبت الأم واقفة وهي تقول:

«لقد تأخرت عن موعد نومك».

واحتضنت ابنتها لتقودها إلى الداخل بخطوات اشتركت فيها الاثنتان بتسللهما البطيء. وكانت عائشة وهي تأوي إلى فراشها تردد بالإنكليزية مقطعاً من الشعر الذي طالما ردده زوجها:

«حيثما كنت، وأنّى توجهت

فستضيء طريقي نجمتك الساطعة

وستهديني محبتك إلى الصواب».

ووضعت فاطمة رأسها على المخدة، فما لبثت أن أغمضت لتذهب

في نوم عميق. وبات ليل الحسكة في الأرض المكشوفة حول الدار حارساً يجول بخفة في أرجائها يردد قول نزّال:

«اللهم احفظ لي دنياي في أسرتي التي أحب».

8

حوّم سرب من الفراشات حول جسده كذباب يتنادى للانقضاض على ثمرة منسية على الأرض. وكان السواد يرفرف مع الأجنحة المرتعشة، فبدا السرب كغيمة قاتمة تنزّل هلاماً كضباب ثقيل أفزعه، ففتح السفرجل عينيه وهو لا يميز الحلم من اليقظة، ثم استوى في جلسته ليشاهد النهار وقد تسلل إلى غرفة النوم، فتنهد مدركاً أن ما كان يجري حوله لم يكن حقيقة بأي حال. كذلك بات حقيقةً صمت التسجيل الذي كان قد ألغى برمجته المعدة للإيقاظ اليومي، فغادر سريره كي يبدأ يوماً جديداً.

ولم يشأ أن يستمع إلى الأخبار الصباحية أو يتناول أي شراب كعادته. كان جوعه يناديه وقد استبد به بعد اليوم السابق الذي رافقه تقشف في الطعام. سارع إلى ارتداء ملابسه على عجل ليغادر الدار ويوقف أول سيارة تاكسي تمر به، طالباً من السائق أن يتوجه إلى حي (الجديّدة) الذي اشتهر ببائع الفول منذ عشرات السنين

وغدا من معالم الحي وهو يدل على إتقان فن الطعام الشعبي.

وارتد السفرجل بالزمن إلى شبابه، يوم كانت دكان الفول تلك مركزاً لتجمع زملاء في الكلية يقصدونه بعد تعب ساعات ليلية يقضونها في المرسم وهم يعملون على إعداد المشاريع. وشهدت طاولة في ركن داخلي من المكان الصغير ضجة الطلاب المبكرين يرسلون ضوضاء الأحاديث التي ألفها صاحب المكان. تغير العاملون مع مرور الأيام ويدير شاب من العائلة ذلك المصنع الغذائي بكفاءة أهله المتوارثة، واحتفظت الجدران بصور أفراد العائلة الراحلين، وكان الميراث الذي يحافظ عليه الجيل الجديد ما زال شاهداً على عراقة المهنة التي أتقنت فن التواصل واجتذاب الزبائن إليها في تهافت لا ينقطع عن الحيوية في معظم ساعات اليوم الواحد.

كان السفرجل في وحدته يستكمل تناول طعامه بشهية لم تصل أبداً إلى تلك المتعة التي كانت تلازم تجمع الزملاء في الأيام الغابرة. وما إن أنجز الهدف من حضوره الذي لم يحدث مثله منذ سنوات، مضى مبتعداً وكانت وجهته معروفة لديه وقد تعودها لشهور عديدة. وكانت قدماه تتحسسان البلاط الأسود البازلتي وكأنه حافظ على نفسه منذ إنشاء الحي الذي يعود أصله إلى مئات السنين، وراقب السفرجل امتداده في الأزقة المتفرقة كشريانات متآكلة وإن كانت تحافظ على تدفق الزمن فيها. كانت رائحة القرون المعتقة تنطلق من حجارة البيوت وخشب الأبواب التي طفح سطحها بالمسامير الصدئة تشكل رسوماً تبدو كالرموز أو التمائم التي يحار المرء في حلها. وتوقف السفرجل أمام الكنيسة الكبرى التي أطلت على ساحة بمهابة الصرح المعماري الجليل، فنبهه صوت النواقيس التي نشطت فجأة، قال لنفسه يحادثها:

«يا لحلب العجيبة! جوامع وكنائس، الزمن يمر بها فتبقى على حيويتها وقد طاب المقام لها. أحلام ومنجزات. خيبات باقية والدليل عليها أنت يا بن السفرجل!».

واكتملت حلقة الزملاء في المقهى بقدوم السفرجل. وهتف الأستاذ كامل وهو يعاين ساعة يده:

«ثلاثون دقيقة يا رجل! تأخير غير لائق بمهندس معمار».

فابتسم السفرجل وهو يحتل كرسيه ويقول:

«سأثير غيظكم لو قلت لكم أين كنت منذ قليل».

فتجمعت العيون عليه دون كلمة من أحد، فأردف بقوله:

«تأخرت عن الحضور لسبب شرعي».

قال الوزير نصر الله بتعاطف ساخر:

«ما من سبب شرعي للتأخير سوى العلاقة مع امرأة جميلة».

فتجاهل السفرجل ملاحظة الوزير وقال:

«استعادة الأماكن التي شهدت جانباً من ذكرياتنا، هي السبب الشرعي».

ثم قال استجابة للاستفسار الذي برز من العيون:

«هناك أمكنة تعيش في الذاكرة مختبئة، ولكنها مرشحة دوماً للظهور في أي لحظة، وكأن الزمن لم يمرّ عليها. وهكذا تستدعيك دوماً لأنها حية دون أن تدري».

وهتف الأستاذ كامل بحماسة:

«لذا يمكن القول بأن الجغرافيا التي تحدد الأماكن هي الأكثر التصاقاً بنا من التاريخ المكتوب الذي يمكن التشكيك بصدق الحقيقة فيه».

فقال الوزير وقد بدا أن صبره ينفد، وهو يتوجه إلى السفرجل:

«هيا يا رجل، قل لنا أين كنت دون مقدمات وحوادث فلسفية».

وعلق العميد سامي بقوله:

«لم يعودنا صاحبنا المهندس على التلاعب بالألفاظ لأنه يذهب عادة إلى المعنى مباشرة».

وتساءل الوزير:

«ألن تختصر الطريق وتقول لنا أين كنت؟».

فعلم السفرجل أن أهل الحلقة ضيقو الصبر، فقال ببساطة ظنها تضع نهاية للموضوع:

«صحن فول عند أبو عبدو الفوال».

وعلق الوزير متأففاً كمن خاب ظنه في الاستماع إلى حكاية حب:

«وهل بات دكان أبو عبدو من الألغاز، وأصبح صحن الفول من القضايا التي تثار في مجلس كهذا؟».

وقال أستاذ الجغرافيا وقد ظهر في تدخله كمنقذ للسفرجل من هجوم عليه قد يتسع:

«لا بد أن حكاية ما تقف وراء الذهاب إلى ذلك المكان، وأعتقد أن الحي يشكل جانباً مهماً من الجغرافيا التاريخية لحلب، لذا توجه إليها الأستاذ معين».

وتساءل السفرجل في سره:

«أية حكاية، وأي هدف!».

وقال للحلقة كمن يبدئ الموضوع من جديد:

«استيقظت اليوم. كنت أحس بجوع حقيقي، فتوجهت إلى حيث يقدم صحن فول لا يمكن أحداً أن يتجاهل تناسق ألوانه وجاذبية طعمه التي لا تنسى. تلك هي الحكاية باختصار».

ظل ركن الأصحاب هادئاً، فاستمر الصمت فترة من زمن يغلي دون أن يفور. وابتدأت الجلسة تظهر حماسة لكسر الطوق ظهرت على وجه الوزير نصر الله الذي جعل حديثه في التدرج من الهدوء إلى ما هو أشد:

«الأستاذ معين السفرجل شعر بالجوع، فتناول إفطاره، ليس في بيته بل في مطعم، أي بعيداً عن أسرته».

وأكمل كمحقق جنائي يكشف السر:

«إذن، نحن أمام مشكلة عائلية يواجهها صاحبنا».

وقال متسائلاً:

«لماذا تكون هناك مشكلة مع العائلة أو لربما الزوجة! أهي علاقة عاطفية جديدة يمر بها الشاب العجوز؟».

وضرب الوزير سطح الطاولة بكفه يقول:

«أراهن بدفع حساب اليوم إذا لم يكن السفرجل يعلل هربه من أهله إلى صحن الفول ليغطي على علاقة خفية».

واحتوى الوزير كتفي السفرجل بذراعه وهو يهتف:

«هكذا تبرهن على شبابك المختبئ وراء التقاعد».

وجعل يتساءل:

«هيا وحدثنا بلا خجل عن فتاتك يا رجل. لا بد أنها فاتنة، فالمهندسون يبحثون عن التناسق والجمال».

وتنهد قائلاً:

«لا تكتمل الرجولة إلا بالحصول على امرأة جميلة».

وكان السفرجل يقول في سره على إيقاع التعجب في عيون الأصحاب:

«لا بد أن نصر الله كان وزيراً للعلاقات الحميمة!».

لم يعلق أحد على المشهد الذي كان الوزير يؤديه بحرارة، كذلك ظل السفرجل على صمته مقيماً يتأمل فنجانه الفارغ، فبدا وكأنه يقرأ فيه أسراراً. وكان العميد سامي يتحدث بصوت خفيض:

«كنت أظن أن الربيع وحده هو فصل الإثارة وفتح ملفات الغرام على طاولة مفاوضاتنا المترهلة».

فعلق أستاذ الجغرافيا بمرح يقول:

«تلك أول مرة أستمع فيها إلى عسكري متقاعد وهو يتحدث بلغة دبلوماسية».

وجعل يستعيد أقوال العميد:

«ملفات الغرام. طاولة المفاوضات!».

وقال مخاطباً العميد:

«لا بد أنك تدير السوبر ماركت بمهارة ناجحة تجعلك نادماً على أنك لم تمتلكه منذ بداية شبابك».

قال السفرجل وهو يحاول أن يعيد الوئام السابق إلى الجلسة:

«كنت أظن يومنا هذا من الأيام الطبيعية، لكنني أجد أننا نسبح في بحيرة التهاتر».

فعلق الوزير قائلاً:

«وقولك هذا فيه الدليل الأكيد على التهرب الذكي من ذكر الحقيقة».

أجاب السفرجل بتهكم خفي:

«نهرب عادة من فشلنا»،

فقال الوزير دون أن يعير القول أهمية ما:

«إذن فلم يُكتب بعد لقصة الحب نجاح يمكن أن تحدثنا عنه»،

فرد السفرجل متململاً:

«أعدك بأن أدلي بتصريح عاطفي شامل عندما يكون هناك شيء يستحق أن يذكر».

لم يكن اللقاء الصباحي مريحاً، فقال السفرجل لنفسه فيما كان الآخرون يقلبون صفحات الجرائد:

«البارحة اختلَّ نظامي اليومي ببداية عجيبة لم أجد لها تفسيراً، واليوم أحس بالغربة بين رفاق المقهى، فما الذي سيحدث بعد الآن

يا ترى؟».

وهتف الأستاذ كامل فجأة وهو يشير إلى صفحة في مجلة مصرية:

«ما زال هذا المفكر يثير حيرتي بالرغم من إعجابي الشديد به».

وأكمل شارحاً:

«الدكتور جمال حمدان، تعرفونه دون شك، الجغرافي الكبير الذي كرّس حياته ليتحدث عن عبقرية المكان لمصر».

وظهر الاهتمام في قسمات وجهه وهو يلقي بسؤال:

«أترانا نفتقر إلى عالم مثله يكشف عن عبقرية المكان السوري؟»،

فعلق العميد ضاحكاً:

«أنت الجغرافي، وأنت من يجيب عن السؤال، أو قد تكون محتفظاً بالجواب إلى وقت آخر».

قال السفرجل وهو يصطاد الحديث بجدية:

«طالما فكرت بشكل معاكس، فالمكان السوري في انفتاحه على كل الجهات لم تتح له الفرصة في تكوين خصوصية جغرافية كالتي تحدث عنها الأستاذ كامل، بل أعتقد أن لعنة الجغرافيا التي حلت به عبر عصور التاريخ من غزوات وهجرات وتمزق داخلي، هي التي ساهمت في تكوين عبقرية المكان السوري في تنوع أثبت أهميته. تعالوا إلى الطرز المعمارية لنجد أنها وحدها كفيلة بإثبات ذلك. سورية بستان حضارات متعاقبة ومتنوعة في ذاتها أيضاً».

وكان في كلام الوزير ملامح احتجاج على ما قيل:

«دعونا نخرج من دائرة الجغرافيا والتاريخ. فكروا في المستقبل»

فقال العميد سامي بمرح المتفرج على معركة:

«المستقبل عند سيادة الوزير السابق يتعلق بأخبار الوزارة القادمة لا غير»

وعلّق الأستاذ كامل بهدوء أثار أعصاب الوزير نصر الله:

«العلماء والبسطاء يجمعون على أن مياه النهر لا تمشي مرتين في مجراه»

فمالك نصر الله نفسه وهو يقول متباهياً:

«لو أن صاحبنا العالم الجغرافي عرف شيئاً عمّا قدمته في وزارتي السابقة لكان له رأي آخر في مياه الأنهار»

ورد أستاذ الجغرافيا ببرود:

«لي رأي، وأظنه يتعلق بنا نحن أضلاع هذا المربع. لا يمكن المتقاعد أن يظلّ البداية دوماً، لأنه حقق النهاية وفق التقويم الشمسي والقمري»

وقال ضاحكاً:

«المتقاعد يا أصدقائي هو من كتب عليه أن يقعد وفق قاعدة اسمها القعود التي جعلت أصلاً لانتظاره».

فتساءل الآخرون في لحظة واحدة:

«انتظار من؟»

فبدت الجدية على حديث الأستاذ كامل:

«هناك من ينتظر حُسْنَ الختام، وآخر بانتظار دوام النعم، وهناك من ينتظر النهاية».

هتف الوزير نصر الله:

«كان يليق بك أن تكون إماماً يا صاحب نظرية الاستسلام»،

ورد أستاذ الجغرافيا:

«أولم نستسلم بعد؟»،

فعاد الوزير إلى حماسته:

«الضعفاء وحدهم يستسلمون، أما أنا فلم أدرج الضعف أو الاستسلام في قاموسي».

وأضاف معتدلاً في جلسته ليتخذ هيئة محاضر:

«من يمارس السياسة لا يعرف معنى للاستسلام، وإذا ما فعل فإنه غير جدير بها»،

فقال السفرجل ممازحاً:

«هل يدلنا السيد الوزير على حبوب المقاومة، لنكون له من الشاكرين».

قال العميد سامي، وهو يستعد للمغادرة:

«علي اليوم أن أعود باكراً إلى المخزن لأشرف بنفسي على تسلُّم بضاعة جديدة».

فعلق الوزير ضاحكاً:

«لقد أصبح العميد مدنياً حقيقياً، ولا بد أنه كقائد سابق لفرقة مدرعات سيكون مرشحاً لائقاً لرئاسة تجمّع السوبر ماركات المنتشرة كالأغاني في البلد».

وتحشّر أستاذ الجغرافيا في قوله:

«إننا نشهد ازدهاراً رائعاً أيها السادة. مكتبة تُقفل فيعوضون عنها بسوبر ماركت تمحو منظفاته بقع المعرفة التي تلوث الأدمغة».

فرد العميد وهو يغادر:

«سأترك التعليق على سخريتك اللطيفة إلى يوم الغد».

وما إن خرج العميد سامي من المقهى، حتى انتصب السفرجل واقفاً وهو يقول إن أعمالاً تنتظره، فأشاح الوزير بوجهه عن مغادرة جليسين، بينما أستاذ الجغرافيا يعود إلى مجلته يقرأ فيها.

كان المكتب الهندسي الذي تعود السفرجل أن يعمل له بين حين وآخر، قد انقطع في الأسابيع الأخيرة عن الاتصال به ليكلفه تصميم بناء أو تقديم مشورة معمارية، فتوجه السفرجل إلى المكتب الذي لا يبعد كثيراً عن المقهى. كان الأجر الذي يتقاضاه من عمله ذاك يشكل مورداً مناسباً ويتيح له الفرصة لممارسة شيء من المهنة. وكان المكتب يعود لمهندس في منتصف العمر أثبت حضوراً في السوق كمتعهد ناشط في حركة العمران وترميم الأبنية القديمة، واشتهر في السنوات الأخيرة بتحويل عدد من الدور العربية إلى مطاعم وفنادق باتت مقصداً للسياح ورواد المدينة.

كان المكتب المطل على شارع خلفي، هادئاً على غير عادته، واستقبلته السكرتيرة التي كانت أشبه بالأم التي ترعى شؤون المكتب

في الاستقبال والرد على الهاتف، فكانت واجهة محببة عند المتعاملين. وعاتبته السيدة التي حافظت على بياض شعرها وهي تسأل عن سر غيبته التي طالت. ولم يطل انتظاره في غرفتها، إذ دعته إلى الدخول بعد اتصال بصاحب المكتب.

كان المهندس الخمسيني ينوس بكرسيه وهو يقلب الجرائد، وقد توقف عن احتساء القهوة عندما هب واقفاً من وراء مكتبه الكبير ليرحب بالسفرجل. كان المشهد غير مألوف، فصاحب المكتب لم يشاهد مرة إلا وهو يتحدث بالهاتف أو أن غرفته قد حفلت بعدد من الناس. وافتتح الرجل الحديث وكأنه لم ينقطع بينهما منذ فترة:

«هل يمكن يا أستاذ معين تصور ما يحدث؟ أن يحال مكتب معروف مثل هذا على التقاعد المبكر؟».

وكان في قوله مفاجأة لجمت لسان السفرجل وجعلته يصغي للرجل من جديد:

«شيء ما لا أفهمه يحدث في هذه المرحلة من حياة البلد. الأعمال تنكمش والركود يزحف».

وهتف الرجل معلناً استنكاره:

«هل تتصور يا أستاذ أن المولين الذين كانوا دوماً عماد عملنا قد أحجموا أيضاً!».

وكان السفرجل محافظاً على صمته، بينما صاحب المكتب يتساءل:

«ما الذي يحدث يا صاحبي؟ أهي دعوة لإقفال مكاتبنا لنقرأ الجرائد ونلعب الطاولة والورق؟».

وأحس السفرجل بأن حضوره للاستفسار عن انقطاع التواصل معه قد تلقى إجابة واضحة، فقال:

«مهنة الهندسة، المعمارية منها على وجه الخصوص، تعكس حالة التقدم في أي بلد، وهي تساهم فيها أو تعمل على تخاذلها أو توقفها».

فهتف الرجل بإقرار العارف:

«حالة الركود الاقتصادي هي التي تؤدي عادة إلى التخلف».

آنذاك هب السفرجل واقفاً وقد خشي من تورطه في حديث سياسي طالما ابتعد عنه، وقال مصافحاً:

«أرجو أن نلتقي مرة أخرى في ظروف أفضل».

قال لنفسه وهو يذوب في الشارع المزدحم:

«لم يبق لك يا معين من المهنة سوى تصفح الكتب والمجلات المعمارية القديمة».

وكانت حركة المنطقة تدل على حيوية الطريق الذي يسلكه دون أن يكون لها هدف مرسوم. توقف عند واجهة زجاجية لمعرض أحذية متزاحمة، وجعل يتأمل شكله في الزجاج اللامع فظهر له رجل تدل ملامحه على هزيمة واضحة، فحاول أن يبتسم لكن الخيال لم يستجب له. مقاسات لكل الأرجل، أشكال مختلفة وألوان متعددة، ومال السفرجل قليلاً نحو الواجهة فانتعلت فردة الحذاء وجهه بكل تفاصيله. حدّث نفسه وهو يعاود السير:

«لم تتمرد يوماً في حياتك. كنت مستسلماً».

ثم ما لبث أن مر بكشك الصحف يشتري جريدة تأبطها، ووجد نفسه متجهاً إلى مبنى البريد ليفتح صندوقه بالرغم من أنه لم يتلقَّ في السنوات الأخيرة شيئاً له أهمية. وكانت خطواته باتّجاه المبنى أشبه بمشية رجل خرج في نزهة.

9

كانت الصالة التي احتلت الحيز الأكبر من مبنى البريد قد احتشد في جانب منها عدد كبير من الخزائن الحديدية الصغيرة، فتوجه المفرجل إلى الرقم الذي يخصه ليفتح الصندوق فكان فارغاً كعادته في السنوات الأخيرة، وإن كانت ثمة ورقة في قعره التقطها ليعرف أنها دعاية لترويج صنف جديد لمنظف لم يسمع به من قبل. قال لنفسه وهو يطويها:

«كُتب عليَّ أن أتلقى إشعارات النظافة، وكأن مساحيقها هي الصناعة الوحيدة الرائجة».

وبينما كان يردّ باب الخزانة لإقفالها، وقعت عيناه على قصاصة مستطيلة لا تتجاوز مساحتها البطاقة الشخصية قبعت وحيدة في القعر، فامتدت يده تلتقطها. كان وجه الورقة السميكة أبيض، فنظر إلى الوجه الآخر ليرى أرقاماً ورموزاً لم يستطع أن يفهمها للوهلة

الأولى. وإذا ما أمعن النظر فيها تبين له أنها بطاقة سفر في القطار. ومرت دقائق قبل أن يفك رموز الكومبيوتر التي أعدها فباتت له واضحة. من حلب إلى دمشق في رحلة الصباح الباكر، ويشير تاريخ السفر إلى يوم الغد. قال السفرجل لنفسه وهو يتلفت حواليه وكأنه يتوقع أحداً يبحث عن البطاقة التي قد تخصه:

«ألا تكون قد وضعت خطأً في صندوقي؟».

كانت الدقائق تمر والسفرجل في الصالة واقفاً يفكر ويستعرض الأمر مقلباً إياه على أكثر من وجه، لكنه لم يستطع أن يهتدي إلى تفسير مقنع، وتساءل:

«هل من الخطأ إذا ما استخدمت البطاقة هذه، وأعلم أنها ليست من حقي؟».

وأجاب نفسه وهو يقطع خطوات نحو الخارج ثم يتوقف:

«لا بد أن الأقدار قد وضعت تذكرة السفر أمامي لأفعل ما كان يجب أن أفعله منذ زمن».

وقد كانت الأشهر التي سبقت إحالته على التقاعد قد شهدت في يوم منها حدثاً تناقله العاملون في المؤسسة، فقد أرسل السفرجل تقريراً مطولاً إلى الوزارة مباشرة، ولكن دون أن يلجأ إلى التسلسل المعروف في توجيه الكتب إلى المصادر العليا. وقد تضمن التقرير رؤيته كمهندس قديم، وأرفق بما يجب أن تكون عليه المباني المدرسية السورية معللاً كلامه بالرسوم والإسكتشات لمدارس المستقبل وعلاقتها بالعملية التربوية، وبدا أنه يحاول وضع خطة جديدة للمباني التي تعدها الدولة لوفود الطلاب المتقاطرة على منابع الدراسة، ولم يفتقر التقرير إلى الإحصاءات والملاحظات التي

استشهد بها من أحوال مماثلة في مناطق مختلفة من العالم. ويذكر السفرجل أن المدير قد وجه إليه اللوم العنيف بعد أيام:

«أوتظن نفسك صاحب القرار الأوحد؟ وهل تضع نفسك بالتساوي مع مقام الوزير واللجان المختصة في الإدارة؟ أهكذا تختتم حياتك المهنية؟».

وخرج السفرجل من المؤسسة دون رد من الوزارة.

قال لنفسه وهو يغادر مبنى البريد:

«أظن الوقت المناسب قد جاء لمناقشة أصحاب الشأن وجهاً لوجه».

وكان يقطع الطريق بخطوات واثقة وهو يقول:

«هذا ما سأفعله غداً، وليكن رأيهم كما يريدون، فسأظل أدافع عن وجهة نظري إلى يوم أموت».

وشعر السفرجل بقوة تتفجر بداخله، فهتف بصوت خفيض قاطعاً الشارع إلى الطرف الآخر بحذر:

«ما عدت تابعاً لسلطة أو خاضعاً لتهديد».

وإذا ما قادته خطواته إلى مقر إدارة السياحة، حتى كان قراره قد استقر على السفر غداً. ودخل المبنى، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها صفية. وأشار مستخدم يحمل صينية القهوة إلى غرفة المهندسين يطرق بابها. هبت صفية واقفة بفرح الدهشة التي أصابتها وهي تشهد والدها شخصاً عند الباب. كانت مساحة الغرفة متوسطة الحجم، قد اختفى معظمها لانتشار المكاتب فيها يتزاحم عليها عدد كبير من النساء بأعمار مختلفة. وعندما اتخذ السفرجل

لنفسه كرسياً بالقرب من صفية، همست في أذنه وكأنها تقدم له الحضور:

«زميلاتي المهندسات، وقد غاب أكثر من نصفهن لأعمال منزلية».

كان الوافد قد أثار حضوره اهتمام الجميع فتهامست عليه العيون، وهتفت صفية تقدمه إلى أهل الغرفة:

«والدي المهندس المعمار معين السفرجل».

فابتسمت له الوجوه، ثم عاد كل إلى انشغاله في أحاديث جانبية هامسة استكملت مجراها بعد انقطاع قصير تسبب به قدوم السفرجل. قال لابنته:

«لم أخطط لزيارتك في مقر عملك» فقاطعته صفية بصوت خفيض:

«بابا، وهل تجد أعمالاً تتأثر بزيارة أحد. نحن كما تعرف نسجل دواماً مطلوباً لا غير».

وأضافت في محاولة لتبرئة نفسها:

«أقوم بكشوف على المباني القديمة من حين لآخر، وهذا قد يكون أمراً نادراً، لكنني أجد له علاقة بسنوات الدراسة التي يجب ألا تذهب سدى».

تساءل السفرجل وكأنه يخاطب نفسه بصوت مسموع:

«أهذا هو مصير المهندس المعمار؟».

فقالت صفية بصوت وجد طريقه إلى زميلاتها:

«قل إنه مصير أي مهندس عندنا. تجد في هذه الغرفة جميع أنواع

التخصص. عمارة، مدني، كهرباء، ميكانيك، وإلى آخر القائمة».

وهمست لوالدها:

«مكتب نسائي متكامل ينسجم مع أنوثة السياحة في بلدنا».

وتجاوز السفرجل سخرية صفية وهو يخبرها بسفره المفاجئ، يوم غد، ذلك أنه سيعود مساءً، وقال:

«رحلة عمل واستطلاع».

وباركته عيناها، وكان وعداً من صفية أن تُعلِم الأهل، وبخاصة خديجة، بالرحلة المباغتة، لذا فعليه ألا يقلق، وتمنت له رحلة مريحة ومفيدة.

خرج من مبنى السياحة يراوده شعور بالأسى، فحال صفية في المهنة يشابه حاله، ويزيد عليه أنها تغطي على عدم إنجابها بإشراق وجه دائم فكانت بذلك أكثر تفاؤلاً من مشاعره الخائبة. واتخذ له مجلساً على مقعد خشبي في حديقة مجاورة، وكان يأخذ موقعاً بين شجيرات زرعت في المسافة التي غطت مجرى نهر قويق الذي توقف ففقدت حلب شرياناً من الماء كان يصنع إيقاع الحيوية لها. تذكر السفرجل ما كان يحدث في الربيع عندما يصبح هياج النهر مهرجاناً للخوف والهرج، تغرق البساتين وتمتلئ الأقبية بالمياه، ويتجمع الناس على طرفي السور يراقبون تخبط الأمواج وهي تحمل جذوع أشجار وجثث حيوانات نافقة. وها هو النهر الآن يتحول أحياناً إلى ساقية من ماء آسن خلّفتها المعامل الصغيرة المنتشرة على ضفتيه خارج المدينة، وبات موسم الروائح الكريهة أكثر نشاطاً مع سيطرة الحر على المدينة.

كان النهار قد مال نحو نصفه الثاني، وخفف الظل من وقع الحر على السفرجل في جلسته، وجعل يفكر في الغد، فيفتقده أصحابه في المقهى وقد تذهب بهم الظنون إلى أن غيابه كان نتيجة لحوار اليوم. ودارت في رأس السفرجل صور ذلك التجمع الذي التقى فيه بالثلاثة دون سابق معرفة، واستعرض عدم سؤاله مرة عن عناوينهم أو أرقام هواتفهم، وتساءل إن كان يقلق حقاً لغياب أحدهم عن اللقاء اليومي. وقال لنفسه:

«أهم أصحاب جمعته بهم رحلة طريق مفاجئة؟ وهل الرباعي العشوائي هذا يمثل حقيقة ما يجري في المقاهي والتجمعات المختلفة في هذه الحياة؟».

وتساءل بعد لحظات:

«هل يشبه المقهى في التقاء رواده ما يحدث عادة في مجالس التعزية تجمع الدقائق القليلة بين أهله على قراءة الفاتحة، ثم ينفض الجمع ويتفرق المعزّون في الجهات المختلفة، بينما الراحل يستلقي وحيداً في حفرة باردة يغطيها التراب؟».

كان اللقاء الأول بحلقة المقهى عندما قرر السفرجل أن يفتتح مرحلة التقاعد بارتياد مكان آهل، فدخل المقهى المطل على الشارع، ولم يكن هناك من طاولة واحدة لا يحتلها أحد، فوقف حائراً، وقد تأبط كتاباً وعدداً من الجرائد فالتقت عيناه برجل وحيد احتل ركناً قصياً، فما لبث السفرجل وهو يسمع دعوة الرجل إلى ركنه إلا أن استجاب طائعاً. قدم الرجل نفسه:

«كامل السياف، أستاذ جغرافيا متقاعد».

وقال كامل عندما قدم السفرجل نفسه:

«أظن أن حلقة جلستنا ستكتمل بك غداً، فقد غادر منذ قليل المتقاعدان الآخران».

قال السفرجل لنفسه آنذاك:

«يبدو أن التقاعد مهنة تدل على أصحابها بسهولة».

مر به وهو ساهمٌ، طفل عرض عليه أوراق اليانصيب، فأعاده إلى الدنيا من حوله. البائع ألحّ بصوت الرجاء، والسفرجل اعتذر بابتسامة بلهاء، وعندما تخلص من مضايقة الصبي عاد إلى حكاية بطاقة القطار. هل تلعب المصادفة في دفعه إلى السفر لإحياء الموضوع الذي نام في سراديب الوزارة وأُهيل عليه النسيان؟. هل تبشر البطاقة ببداية مرحلة جديدة من مسيرة المهنة؟ ما الذي ينتظره لو أن الوزارة استمعت فعلاً إلى تقريره فأقرته؟ تمتم السفرجل:

«ليكن ما يكون، فأنا سأمضي في الرحلة إلى آخرها».

وهو يصبح في الدار، تفجرت فيه حيوية البحث عن الأفكار المسجلة والخرائط التي أعدها على مر السنين حول المباني المدرسية في أرجاء البلاد. كان يسعى في كل ركن للعثور على الوثائق المطلوبة والرحلة تقوده في كل خطوة، وكانت الموسيقى ترافق بحثه فتبدو النشوة على أوصاله وكأنه واثق من النصر كلاعب في مباراة. وتجمعت أوراقه ولفافات المخططات في جعبة عثر عليها، وهي أشبه بحقيبة بحّار، فربت قماشها السميك بحنان كفه وهو يستأمنها على كنزه.

بداية موفقة لرحلة مرتقبة، لذا فقد توجه إلى الحمام يغتسل بماء البهجة التي تغلغلت في أوصاله، ليندفع مدندناً بأغنية لليلى مراد وخياله يستعرض فيلمها الذي كان قد شاهده لأكثر من مرة منذ

أربعين عاماً. وتدفقت أيام السينما مع سيل الماء لتوقظ لحظات العواطف المتدفقة مع كل مشهد من الأفلام التي كانت النافذة الوحيدة التي يطل منها على عوالم الخيال. كان الشاب معين يحل بدلاً من (البطل) العاشق أو المقابل في معركة يخرج فيها منتصراً بوسام أو بالخيبة.

وجاء صوت خديجة معاتباً على الهاتف:

«لا بد أنك ما عدت تشتاق لابنتك والأولاد. ثلاثة أيام لا نراك فيها! أهكذا عودتنا؟».

ولم تترك له فرصة برد، بل أضافت:

«ستسافر غداً دون كلمة وداع. أعلم أنك تخصُّ صفية بشيء نعرفه ونقبله، لكننا نحبك أيضاً».

ووجد السفرجل فسحة لقوله:

«سفر مفاجئ ولكنه قصير، سأعود في اليوم نفسه. زيارتي لصفية كانت الأولى في عملها. اعلمي يا خديجة أن حبي لكم، لعائشة وصفية ولك لم يتغير ولم يختلف، أنتم زهراتي الثلاث أنسيت؟».

هتفت الابنة:

«وأنت البستاني الذي يرعانا».

في العودة إلى وحدته، تساءل السفرجل إن كانت الأسرة التي يرعاها هي التي تمده بالقوة وتشد أزره لمقاومة الحياة التي يعيشها، بمشاكلها وآمالها الخائبة وإيقاعها البطيء كلحن جنائزي، قال:

«يبدو أن رقة البنات هي التي خففت عني دوماً!».

وقال هامساً فاختلطت الكلمات بالدخان المتطاير من سيجارته:

«كانت تلك الرقة التي أحطت بها هي التي كبلتني أيضاً».

لا ينقضي يوم من حياة السفرجل دون التفكير في مأساة عائشة التي فقدت حبيبها عريس الموت المبكر، أو في حرمان صفية من ثمرة للعلاقة الجميلة مع زوجها. وخديجة! ألم تحرم من إكمال دراستها وكانت في طموحها تتطلع إلى شهادة جامعية تعزز بها شخصيتها. وأطلت فاطمة على ساحة فكره لتطرد كل ما عداه، وجعلت تبربر:

«وما نفع سفرك العجيب هذا؟ لقد انتهى عملك وبت مهجوراً من الوظيفة. أليست تلك هي الحقيقة يا معين؟ كان عليك أن تكافح منذ البداية، وما تفعله الآن هو يقظة بائسة».

وهتف السفرجل بصوت رددته أرجاء الدار:

«ستكون رحلة مثمرة. رحلة مثمرة. مثمرة».

10

تفتحت عيناه على نبض هاجس الاستيقاظ الذي لم يهدأ في ليلة التقلب على الفراش، ونظر السفرجل إلى الساعة وهو يوقظ النور في ظلمة الغرفة، فكان الوقت ما زال مبكراً أمام رحلة القطار. وحاول أن يغمض عسى أن يستعطف النوم، إلا أنه لم يستطع فغادر السرير بعد قليل. كانت الليلة تتقلبها أحلام قصيرة كإبر تَخِز حسّه فيستيقظ من جديد بعد كل واحدة منها. أحلام كالألعاب النارية تطلق الأفكار لتدق بابه من حين لآخر. وكان أول ما فعله بعدما غادر غرفة النوم أن تفقّد كيس البحارة ليطمأن عليه كرفيق سفر طويل.

وفي الوقت اللازم، ومع تسلل طلائع الفجر، غادر السفرجل الدار حاملاً الجعبة على كتفه كرحالة ينطلق من نقطة البداية. كان يقطع الشوارع الخالية في صباح باكر كواحد من العسس يتفقد أحوال المدينة النائمة وتردد وقع خطواته واجهات الأبنية التي اصطفت على

الجانبين تؤدي له تحية وداع، وكان السفرجل يستعرضها ماضياً في طريقه بهمة عالية.

كانت الظلمة التي أفسحت المجال للضوء الهلامي ليقع على الواجهة الجميلة لمبنى المحطة القديم، والذي ظهر للسفرجل في الساحة المحيطة كتحدٍّ للجمال أمام الأبنية الحديثة المطلة عليها. قال السفرجل لنفسه:

«محطة تجسّد مهابة لحظة البداية والنهاية للأعمال المعمارية الحلبية».

وكان البناء قد اكتمل في بداية القرن، وعتقته السنون فازداد حداثة. شارك كمحطة قطار في الحرب العالمية الأولى ينظم حركة الجنود، فازدادت أهميته الاستراتيجية إلى جانب عراقته.

ورحبت البوابة المقنطرة بالداخلين، فوجد السفرجل نفسه في صالة متسعة يلمع بلاطها الملون، وتحولت جدرانه إلى معرض للوحات فنية تمثل القلعة ومناطق أثرية من سورية، فكانت قاعة المحطة أشبه ببوابة تقود إلى جولة في أرجاء البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن البادية إلى البحر، فقال لنفسه وهو يطوف بعينيه في القاعة:

«ابتدأ قطاف ثمار الرحلة من لحظة الانطلاق هذه».

على الرصيف أطل على القطارات المتجمعة، وعندما ابتدأ المسافرون في الصعود إلى العربات وجد نفسه يلتحق بهم. واحتل مقعداً فارغاً فاسترخى عليه وبات كأنه قطعة منه. من النافذة عاين الرصيف المقابل ليجد قطاراً قد أخفاه. قال السفرجل:

«قطارنا يغادر، وهناك قطار سيأتي. ذهاب وإياب، تلك هي وظيفة المحطة».

وأغمض وهو يتذكر أول قطار عرفه في حياته عندما كان طفلاً. استيقظ صباح يوم ليجد قطاراً في أرض غرفته الصغيرة التي تعوَّد أن ينام فيها بعيداً عن أختيه، فسحبته الدهشة إليه يعاين عرباته وقضبان سكته ليتبين أنه يجري حقاً. كان القطار أول هدية ثمينة يتلقاها، فجلس في مركز الدائرة التي يدور من حولها بعرباته لا يصدق حقيقة ما يحدث له. وابتدأ حب القطارات منذ تلك اللحظات الرائعة، ويصبح مع تقدم العمر من الأحلام التي يتعلق بها، ويتمنى أن يستقل قطاراً يجوب فيه العالم فيقف في مدن تتحدث عن الجغرافيا. وعندما بات مهندساً، كان يحلم برحلة إلى مواقع تشهد صناعة العمائر العظيمة. إلا أنه وبعد أكثر من نصف قرن تصبح له فرصة في القيام برحلة ذات هدف يعتبرها حاسمة، ففتح عينيه ليتأكد من تحققها، فإذا بدقات جرس تنبئ بالرحيل.

وتحرك القطار، ابتدأ بطيئاً ليستجمع قواه بهدوء يتصاعد، وإذا بإيقاع عجلاته المتسارعة يعلن عن جدية تقدمه في الرحلة. كان صوت التقدم كراقصة على لحن منفرد يدعو الركاب إلى الاستسلام كلياً لمسيرة الزمن المرسومة. تك. تك. تك، دواليب تحتك بالسكة فيرق شرار يرجع السنين إلى بداياتها.

ينمو الطفل في حوش الدار مع أغصان شجرة النارنج. وكان السفرجل قد تجاوز السنة من عمره عندما انتشر خبر الحرب العالمية الثانية، فلم يعلم الطفل عنها شيئاً، كان مشغولاً بالمتعة البيضاء التي يمده الحليب بها يرضعه من الثديين المعطاءين لأمه يحليه الحنان الذي لم يغب عنه طعمه. إيقاع القطار يصبح مع إغفاءة السفرجل همهمات تعيد إلى الذاكرة أغاني الأم وهي تهدهد وليدها. أيام الحرب قاسية، ولكن الطفل محاط بعناية الأسرة كلها، إنه الكائن الأكثر رعاية. ويفتح الطفل عينيه ذات يوم على أصوات الزغاريد

ترسلها حناجر الأهل والجيران إيذاناً بحدث عظيم سيفهم بعد سنوات معناه، لقد انتهت الحرب.

نظر السفرجل عبر النافذة إلى البساتين وهي تغادر المدينة لتصافح رؤيته. بعد مسافة كانت قباب طينية وبيوت ريفية تودع القطار بسكونها الواجم. وكانت البساتين قد مهدت لظهور صناعة الحجر وشواهد القبور، فداخله ظن للحظات عديدة أن ما يشاهده في تلك القباب والبيوت ما هو إلا أشكال معدلة لنماذج الشواهد المختلفة، فأغمض يحاول أن يستعيد ما كان يراه في مرحلة الطفولة.

صوت غريب هو الذي فتح مغلاق عينه فلحقت بها الأخرى ليشاهد مفتش القطار واقفاً يطل عليه بسؤال عن التذكرة، فابتسم السفرجل وكأنه يرد على تحية ألقيت عليه، فأعاد الرجل طلب التذكرة. وتنبه السفرجل، فامتدت يده إلى جيب في سترته لتخرج من غير شيء. حاول في الجيوب الأخرى وقد انتصب على ساقيه تظهر عليه علائم القلق، وتساءل عن سر غياب البطاقة، مقسماً إنها كانت لديه. وبدأ المفتش يفقد صبره فجعل يقول بقسوة:

«التذكرة يا أستاذ، وقتي لا يسمح بانتظارك طويلاً».

وظهرت حبات العرق على جبين السفرجل وهو يعيد الكرة بحثاً، إلا أن الرجل ما لبث أن قال بحزم:

«الأفضل أن تدفع ثمن التذكرة، ولا تنسَ أنها مصحوبة بغرامة يا سيدي».

فجاء طلب المفتش منقذاً له، فهدأت أنفاسه المضطربة وعادت الابتسامة إلى وجهه، فها هي المصيبة التي كادت تحل به قد زالت، وردد لنفسه:

«لو أن المصاعب التي واجهتنا وجدت حلاً كهذا».

بات السفرجل الآن يحس بشرعية رحلته، فكان يلاحق من النافذة انسياب الأراضي التي غمرتها شمس الخريف ترتفع في السماء، وكان النور يلمع بداخله أيضاً كما حدث له يوم رفعه قريب له على أكتافه ليتابع موكب الرقص والطبول. ولم يكن مهرجان الاستقلال الذي أقيم احتفالاً بانتهاء الاحتلال الفرنسي، ليعني شيئاً للفتى الصغير سوى سيطرة الصخب على كل مكان باستثناء دارهم التي كانت تصحو وتغفو على طمأنينة السكينة المتواصلة. ورفع السفرجل رأسه يتفقد جعبته التي وضعها على الرف فوق رأسه، فكانت كمظلة تحميه وتحمل له أملاً كبيراً في شيء ما سيحدث وقد يحمل تغيراً في حياته الراكدة.

«أتراهم سيعيرون الاهتمام اللازم بأفكاره ومشروعه؟».

إلا أنه انتفض فجأة في مقعده، وهو يستعيد الأحداث التي مرت عليه في ساعات اليومين الماضين

«من أين جاءت التذكرة، وكيف اختفت».

وعاد إلى التساؤل:

«أي تدبير أعدّ له ليقوم بهذه الرحلة التي يحلم بها حاسمة؟».

وقويت أشعة الشمس متسللة إلى العربة مع صوت جاءه من الخلف:

«معين، معين السفرجل!»

فاستدار برأسه باحثاً عن مصدر النداء، فكان ثمة رجل قد فقد شعره وقد امتلأت نظراته بالترحيب:

«معين، معين السفرجل»

وهمّ الرجل بذراعيه ليحيط به كعزيز عثر عليه بعد غياب طويل. ولم يستطع السفرجل الادعاء أنه يعرف الرجل من قبل، إلا أنه وقف على قدميه يرد التحية بمصافحة باردة. هتف الرجل وهو يحاول من جديد احتضان السفرجل الذي ابتعد قليلاً ليحافظ على مسافة بينهما:

«هل نسيت أحمد العرّاف؟ أنا أحمد يا معين».

وشدد بقوله:

«العراف. عام البكالوريا، هل تُنسى يا رجل؟».

وأردف بقوله وهو يدعوه إلى الانتقال من العربة:

«تعال نستعيد الأيام الخوالي في عربة البوفيه».

فوجد السفرجل عنده استجابة لم تعرف المقاومة.

في البوفيه باتا متقاربين على الطاولة الثنائية. تصادمت نظرات الاستغراب مع الود الذي ظل مشعاً في وجه العرّاف الذي جعل يقول:

«لم تتغير كثيراً يا سفرجل. تجاعيد الوجه قليلة، والشيب ليس كثيراً».

وأغمض السفرجل للحظة كأنه يستعطف الماضي، فإذا بالعراف الشاب يظهر له. سنة دراسية واحدة جمعت بينهما ليغيب بعدها رفيق المرح الذي لم يعرف سوى الشغب المقبول. هتف السفرجل:

«تذكرت. الآن أتذكر أيامك يا عراف».

وتساءل بعد لحظة:

«أين اختفيت يا رجل؟ ما عدنا نسمع أخبارك».

فضحك العراف قائلاً:

«التحقت بأعمال والدي التجارية، فلم أعرف الاستقرار في بلد. أيام هنا ثم أنتقل إلى مكان آخر. السفر يزيدك خبرة، فاكتشفت أن عالم المدينة والمدرسة كان نقطة في بحر هذا العالم. أمواج تتقاذفك من شاطئ لآخر فيغتسل عقلك وجسدك بمياه جديدة لم تشعر بها من قبل، فتحس بأنك في كل رحلة قد ولدت من جديد. لغات مختلفة تجهلها من قبل، ثم تجد أنها باتت مفهومة وأنك تتواصل مع أهلها».

هتف السفرجل مستمداً من كلام العراف حيوية:

«كنت تعيش حياة حقيقية. هذه هي الحياة!».

فقال العراف:

«ما قيمة الحياة بلا معرفة لخفاياها التي حجبت عنا في هذه الجزيرة المنعزلة؟».

واستطرد من جديد في حديثه:

«قاسيت في بداياتي. كنت شاباً طرياً حُمّل ثقة أكبر منه، فقبلت التحدي. ثم بدأت مغامرة اتخاذ القرارات الشجاعة. أخطأت وأصبت، فكان الخطأ بمثابة النار، وعندما أصيب أشعر بأني في الجنة».

وأحضر السفرجل كأسين من القهوة، فوجد العارف يلاحق المشهد في الخارج، وما إن أحس به حتى هتف قائلاً:

«أضعت يا صديقي فرصة لا مثيل لها. الشجرة، ليتك شاهدتها».

فارتسمت دهشة على وجه السفرجل وهو يصغي من جديد إلى العراف:

«شجرة نادرة قلما تشاهد مثلها في بلاد أخرى».

وأضاف وكأنها ما زالت أمامه:

«عجيب أنها نمت هنا. هي أشبه بشجرة رأيتها مرة في أرض خالية تطل على بحر الظلمات، فقال لي عجوز إنها أشبه ما تكون بشجرة الخلود، لا هي من الزيتون ولا هي من التين، وقد تكون لها صلة بشجرة الجوز، إلا أنها تظل جليلة بالرغم من عطش يصيبها. تتأكد حيويتها عندما تتفتق أغصانها عن أوراق مولودة، إلا أنها لا تلقى بالاً لخريف أو شتاء، فلا يعرف البرد كيف يصيبها ولو كان جليداً».

وسأل السفرجل بسذاجة:

«أهي جني أم شجرة؟».

وقال العراف كمن يرثي لحال رفيقه:

«ليتك كنت رأيتها بأم عينك!».

وهمهم السفرجل:

«أهي شجرة خارج نظام الطبيعة التي نعرفها؟».

وكان يقول في سره:

«هات لي من يصدق».

كسر الرجل صمتاً خيم عليهما مع صوت العجلات الرتيب، قال:

«تلك كانت أخباري باختصار، فما أخبارك يا سفرجل؟».

وتوقف السفرجل عن أية حركة ولم ينبس بكلمة. تذكر فجأة حادثاً كان قد سمع به منذ سنوات طويلة فتساءلت عيناه:

«أيعقل هذا؟ أي واقع سمعت به أذناي؟».

وتطلع إلى جليسه متفحصاً فيما يقلب خبر الحادث الذي تذكره وكأنه يعود كما هو. وكان العراف في ابتسامته متجاوباً مع دهشة السفرجل تتدفق من وجهه. تذكر تلك اللحظات يوم قابله زميل دراسة قديم وقد أصبح محرراً في جريدة. قال الزميل:

«هل تذكر زميلنا الذي غاب فجأة؟ أحمد العراف الذي هجر الدراسة ومشى في طريق النجاح بخطوات صاعدة واثقة. لن أنسى الشاب المرح وقد كسر الطوق وانطلق كالشهاب في سماء النجاح، وقد خلفت أسفاره ومغامراته السندباد حزيناً. هل تتصور أن ذكره جاء أكثر من مرة في وكالات أنباء عالمية تحكي عن فتوحاته في عالم النشاط الاقتصادي. هل تذكر الباخرة التي غرقت منذ فترة عند رأس الرجاء الصالح ولم ينج منها أحد؟ أحمد العراف كان في تلك الباخرة وكأن قدره رُسم ليغوص في مياه غريبة».

وعادت عينا السفرجل تحومان حول جليسه الذي غمرته أشعة الشمس المتدفقة من النافذة على الطرف الآخر، فاختلط بريق وجهه بالضياء القادم، فحسب السفرجل أنه بات عاجزاً عن التدقيق في واقع العراف فلا يستطيع تميزه من الأشعة الدخيلة، وأن إحساسه قد وقع فريسة الخلط بين الوهم والواقع.

11

وكانت الرحلة مستمرة كسهم انطلق مندفعاً في الزمن، فلم تكن له فرصة في أن ينحرف عن مساره أو أن يضمن لحظة توقف يجدد فيها قواه. وظل السفرجل مغمضاً، وقد أسلم جسده للمقعد الذي خيل إليه أنه في احتضانه له سيهدأ من الوساوس التي تهاجمه من حين لآخر. وجعل يلاحق اللحن الرتيب التي ترسل به العجلات وهي تنسج على سكتها لحن التقدم إلى أمام، وابتدأ في متابعة الإيقاع بترديد الأرقام، واحد.. اثنان.. ثلاثة، وكأنه يحصي خطوات القطار، فإذا ما وصل إلى رقم الألف يتوقف لحظة ليعود بعدها إلى العد، واحد.. اثنان.. ثلاثة، لتقف به الأرقام عند سقفها (الألف).

«هل الألف هو نهاية المطاف لمسيرة تفكيره، وهو غير قادر على تجاوزه؟».

وتساءل من جديد:

«لكل شيء نهاية، فهل نهاية الأرقام تظهر عند ذلك الرقم لتتوقف، بالرغم من أنه لا حدود للأرقام بعد أن بينت كشوف المعرفة أن اللانهاية هو واقع لا يمكن إنكاره؟».

«وما معنى اللانهاية؟».

ووجد السفرجل نفسه يجيب:

«يبدو أن البداية والنهاية أمر بعيد عن فهم البشر».

وقال هامساً يطمئن نفسه:

«ألسنا البداية والنهاية؟».

وظهرت له على شاشة النافذة التي غشاها الغبار بقايا عمائر متوزعة على طرف الطريق يتسابق غيابها مع اندفاع القطار. وخيل للسفرجل أن الخرائب كانت ذات يوم مدينة صغيرة هجرها أهلها أو ضربتها مصيبة، فبقيت منها جدران منازل قاومت وهي الآن في طريقها إلى التآكل. ثم ساد المشهد أرض صفراء خلت من أي عمائر أو نبات، فبات المنظر يباباً يزحف باتجاه تلال جرداء ذابت صخورها تراباً، وما لبث المشهد أن جعل يرشقه بفراغ ابتلع قدرته على تحديد مكان أو زمان.

كان معظم الركاب في العربة قد أغفا، فابتدأت يقظة السفرجل تتفتح كحجر ألقي في الماء لتتابع الدوائر في اتساعها. سمع نشيج أبيه وهو يحدث الأسرة عن تقسيم فلسطين، وكان في العاشرة عندما دارت الحكاية نفسها في المدرسة. وفي الحارة جعلوا يتحدثون عن رجال، منهم معارف وأقارب من بعيد، قد سافروا في رحلة إلى

حرب فلسطين، فبدا له الأمر آنذاك وكأن الرجال خرجوا في نزهة إلى منطقة قريبة تتهددها مخاطر سيضعون حداً لها ويعودون بالهدايا. قال مدير المدرسة في جموع التلاميذ الذين شُدت أبصارهم إليه:

«يوم التقسيم، هو يوم الحزن يا أبنائي».

من الذي مات؟ فالحزن الحقيقي يرتبط بالموت عادة، فهل التقسيم يعني الموت؟ ورد على تساؤل الطفل الملحّ بعد زمن، المعلم الذي يحمل وجهاً متجهماً وكأنه فقد عزيزاً. قال:

«لا تموت لنا أرض. الناس يموتون فهذا قضاء الله، ولكن الأرض لا تموت مهما كان قضاء العدوان عليها، فتذكروا ذلك دوماً».

واختلطت الشوارع بالهتافات وقد خرج الناس يصرخون في الفضاء لوحدة فلسطين، فصرخ مع الآخرين ثم عاد إلى الدار يطلب الطعام والأمان وهدير الأصوات لا يزال في سمعه.

«بالروح، بالدم، نفديك فلسطين».

بالروح، تلك، بالدم، تلك. والقطار يركض هارباً، والسفرجل في مقعده لا يتحرك. وتفكر في سنوات العمر:

«ابتدأت مسيرة الغضب بمصطلح اسمه النكبة، ثم أفلتت من اليد خيوط طابة الصوف لتتوزع في كل اتجاه وكأنها أسلاك شائكة تقف في وجه الطمأنينة».

ولم يشأ أن ينتقل إلى عربة البوفيه ليدخن، فقد كانت السيجارة ملاذه ليخفف عن نفسه هجوم الأفكار التي لا تتوقف. وقام متوجهاً إلى الحجرة الضيقة التي تفصل عادة ما بين عربتين لينفث

الدخان فيها وكأنه يتخلص من ثقل يجثم على صدره. كانت الأرض تهتز تحت قدميه بقوة لم يشعر بمثلها في العربة، فاستند بظهره إلى الباب، وامتد بعينيه إلى الباب المقابل ليتابع من نافذته طريقاً موازياً لسكة القطار، وكانت شاحنات صغيرة تطوي الطريق في الاتجاه المعاكس لمسيرة القطار، وكان في تناقض الاتجاهين مدخل لتفكير السفرجل في حقيقة الذهاب والإياب، المغادر والقادم، الراكض بإرادته المصممة والواقف متحركاً بإرادة مرسومة له كما هو الآن في العربة المسافرة. وكان الضجيج لا يتوقف في الحجرة الضيقة فتوالدت أيام الشباب وهو يستعد لتقديم امتحانات البكالوريا. المستقبل في كفة وتلك الشهادة المتوحشة توازنه في الكفة الأخرى. الإصرار يتكافأ مع الخوف فيواصل الليل بالنهار لا ينتهي من تقليب كتبه بذعر الجائع وقلق الخائف. يصلي أحياناً داعياً الله أن يقيه يقظاً، وبالرغم من ساعات النوم القليلة إلا أنها حفلت بأحلام المعادلات الجبرية وقوانين الفيزياء ومعادلات الكيمياء.

فُتح الباب ودخل الحجرة-الممر شاب يسعى نحو العشرين بصعوبة يدل عليها شارباه الخفيفان. تبادل النظرات الخاطفة مع السفرجل الوحيد فيها، وبدا على الشاب وكأنه يطلب الإذن في إشعال السيجارة التي أخرجها من علبة يحتفظ بها في جيبه. وكان صمت الاثنين يشارك تشابك الدخانين في سماء الحجرة. قال الشاب فجأة:

«لم يُسمح لي بالتدخين في العربة. لم أكن أعلم ذلك، فهي المرة الأولى في ركوب القطار».

فقال السفرجل:

«هناك عربة خصصت للتدخين، عربة البوفيه، والوصول إليها سهل.

تجدها خلف هذا الباب مباشرة».

تساءل الشاب ببراءة:

«علمت أنه يسمح بالتدخين أيضاً في هذا المكان. لمحتك تشعل سيجارتك فتشجعت».

قال السفرجل:

«ما دام المكان هنا لا يمنع فيه التدخين»

ورمى بعقب سيجارته أرضاً، فسمع الشاب يقول:

«أفهم أنه يسمح به في عربة البوفيه وفي هذا المكان، أليس كذلك؟».

قال السفرجل:

«هذا الممر الأشبه بالحجرة، يمكن اعتباره مكاناً يفصل ما بين الممنوع والمسموح»

فعلق الشاب في محاولة للاستمرار في إذكاء نار الحديث المشترك:

«ألا يذكرك يا أستاذ هذا المكان بشيء، بالبرزخ الذي سمعت عنه وهم يلقنون الميت. البرزخ هو مسافة ما بين دار الحياة والدار الآخرة».

قال السفرجل وهو يشعل سيجارة من جديد:

«ما دمنا على قيد الحياة، فلنفكر في هذه الحجرة الوسط بين عربتين، لا يسمح في واحدة ويسمح في الثانية».

وكان يفكر بداخله ساهماً بعينيه:

«أعرف أن هناك الممنوع والمسموح، وأن هناك الصح والخطأ، كذلك الخير والشر، الحسن والقبيح. ولم أعرف أن ما بين تلك التناقضات مسافة لا تعرف فيه (اللاّ) من (النعم)».

ونظر السفرجل إلى الشاب متفحصاً، وفيما هو يغادر عائداً إلى مقعده كانت ابتسامة على وجهه لا تفصح عن مغزاها.

تابع السفرجل مراقبة الأراضي التي تلتهمها سرعة القطار المنتظمة، وقد سمحت الأعشاب اليابسة وهي تغطي أجزاء متفرقة من تربتها بتيقظ أيام سالفة. أخبار الراديو تغزو سمعه في بداية التحضير لامتحانات البكالوريا، لتعيد إليه الأحداث المتواترة مشاعر سياسية يحاول دوماً أن يبتعد عنها، فقد كانت المدرسة تتحول في كثير من الأحيان إلى بؤر الأفكار والمبادئ المتضاربة فيحاول دوماً أن يظل في الحدود الفاصلة بينها. إلا أن حرب السويس كان لها شأن آخر. كان يدافع عن تأميم قناة السويس كمن يمتلك نصيباً فيها، ويعلن موقفه ضد العدوان الثلاثي على مصر ولطالما قال بين رفاقه:

«لو لم أكن وحيداً لأهلي لكنت تطوعت في المقاومة للدفاع عن مصر (محمود مختار) و(طه حسين) و(أم كلثوم). علينا ألا نترك مصر وحيدة».

وقد جرحه آنذاك قول شاب من زملاء المدرسة:

«لو كان معين السفرجل صادقاً في مشاعره السياسية، لما اختبأ وراء حجج عاطفية».

وتساءل السفرجل في ليلة وحيداً:

«هل كان الشاب على حق في اتهامه لي؟».

وكان حبه لثريا في تلك الأيام يخفف عنه وطأة السخرية منه يقودها ذلك الطالب، وكان من زعماء الحركات الطلابية وقيض له أن يكون بعد ذلك مسؤولاً في جهاز أمني، فيكررها على مسامع الآخرين، ويدافع السفرجل عن نفسه:

«لا يمكنني أن أدعي كذباً حب بلد أحس أنه بلدي أيضاً».

ويتساءل دوماً:

«هل يسمح لك الحب بالكذب على نفسك؟».

وما كادت صفحة (القناة) أن تطوى، حتى كانت شوارع المدينة تمشي مع أصوات المهللين للوحدة التي أقيمت مع مصر. حدث ذلك في تسارع خفق له قلب السفرجل. تبادل الناس التهاني وملأت الأغاني آذانهم بالنشوة، إلا أن مشاركته العاطفية لما يحدث في البلد لم تمنعه من التفكير في مستقبل تلك الوحدة وإن كانت حقاً ستقود إلى شيء أكبر.

وسيحدث بعد ذلك ما لا يُحسب له حساب، فقد لوحق عدد من طلاب الكلية كان من بينهم. اعتقل أياماً ليفاجأ بالتحقيق معه في تلك الفترة:

«ما علاقتك بالشيوعية؟ ما صلتك بالبعثيين؟ متى تواصلت مع جماعة الإخوان المسلمين؟ هل لك صلة بأحد من الأتراك؟ ما موقفك من إسرائيل؟».

وقال المحقق وقد أحاط به مساعدان يتقنان فنون الضرب:

«حدثني بالتفصيل عن حياتك في الكلية».

«طبيعة الدراسة في الكلية تدفعك إلى الاحتكاك بكل أنواع الطلبة».

وقال السفرجل بعد فترة وهو يستمع إلى قرار الإفراج عنه:

«كنت أتمنى أن تسألني عن علاقتي بنفسي»،

فهتف المحقق صارخاً في وجهه:

«إذا كان عندك أسئلة متفلسفة أخرى أيها الشاب، فسآمر بالاحتفاظ بك هنا».

فلملم السفرجل نفسه وانطلق عائداً إلى حياته وقد عجز عن فهم السبب الذي أتى إلى اعتقاله والإفراج عنه.

12

تباطأت عجلات القطار إلى أن هدأت تماماً، فبدا المنظر للسفرجل من نافذته وكأن توقفاً مؤقتاً عند محطة له علاقة ببرنامج الرحلة. ودفع الفضول به إلى متابعة ما يحدث خارجاً، إذ شوهد عدد من الرجال يهرعون نحو مقدمة القطار. كانت النافذة غير قابلة للفتح، فلم يستطع أن يشاهد ما يحدث هناك، إلا أن السكون لم يطل، فقد ارتعش جسد القطار ليستعيد حركته وجعلت العجلات تدب ببطء. قال السفرجل لنفسه:

«تأخير مقبول والحمد لله. ها نحن نتابع من جديد».

وتفحص ساعة يده يعاين بها الزمن، فكانت قد توقفت منذ زمن، وقدّر من سكون عقاربها أنها متوقفة قبل صعوده إلى القطار، فجعل يهز معصمه في محاولة لإعادة الحياة إليها، إلا أن الساعة لم تبدِ استجابة ما، وظل السكون علامة لا تفارقها، همس بصوت

خفيض:

«ومن يحاسب الزمن؟ الزمن هو الذي يحاسبنا».

وظلت ذكريات الاعتقال حية في العقل لا يقدر على التخلص منها. كان السفرجل هناك يوم احتشدت تظاهرة غاضبة في ساحة الجامعة تستمع إلى خطاب أستاذ لم يعرفه من قبل. قال الخطيب إن التاريخ سيحاسب من تسبب في انفصام عرى الوحدة بين بلدين أخوين، ولن يغفر الزمن للانفصال جريمته، فتعالت الهتافات وظل السفرجل في وقفته بالقرب من العمود الذي كاد أن يعزله عن المتظاهرين، فلم يدر إن كان عليه أن يشارك الجموع بالغضب أو يحتفظ لنفسه بعواطفه، فتجربة التحقيق معه لقنته درس الاحتفاظ بآرائه بتكتم بات جانباً من سلوكه.

وها هي أيام الكلية تتوقف في محطتها الأخيرة فشعر بورقة التخرج وكأنها وثيقة منحته شهادة إثبات الوجود، فيذهب تفكيره إلى مكتب يديره لتحقيق أحلامه المتراكمة في سنوات الدراسة. وذاب الوهم أمام الصعوبات التي لبست كل لون لم يخطر في باله يوماً. واستلم بعد أشهر من البطالة القاتلة لعملٍ في مكتب متعهد بناء زحفت أعماله على بساتين الفستق وأراضي الزيتون مدعياً تقديم الخدمة العامة وهو يرفع شعار المجد لبيوت الفقراء. ويكتشف السفرجل أن الرجل يؤمن ببناء قبور فوق سطح الأرض، فهرب خوفاً على نفسه من أن يدفن بين الجدران الهشة لعمائر فرضت نفسها حزاماً لمدينة كانت قد لبست قوة الحجر لزمن طويل. وشيعه المتعهد بسخرية نظرات تحاول أن تنهش أحلامه في تبني العمارة الحلبية الجميلة. وجاء العمل الحكومي منقذاً له، وازدادت ثقته بالوظيفة، وهو يسمع الكثير عن رؤية الدولة القائمة في مستقبل

أفضل. وكانت أيامه الأولى في المؤسسة ترافقها حماسة لثورة حقيقية يقودها نظام يبشر بشيءٍ مغاير لكل ما سبقه. ولم يجد الجرأة في الالتحاق بالحزب الذي تجلت حيويته عند المدير وعدد كبير من زملاء العمل، فكان بابتعاده عن أية مشاركة مهما كان نوعها يجعل منه أشبه بفرخ البط القبيح وهو يسبح خلف جماعته التي تهرب منه أبداً.

ومر القطار بقطيع من الغنم تجمع حول كبش تباهى بقرنيه وسط أتباعه، فاستدعى المشهد الخاطف ذلك اليوم الذي دعاه فيه والده إلى الإصغاء:

«لقد بلغت نهاية الرحلة يا ولدي. نلت شهادتك بتفوق ولا تلاحقك الخدمة الإلزامية، وأنت الآن مهندس يعتمد على نفسه بل يُعتمد عليه، وأنت رجل الأسرة الوحيد من بعدي. تزوجت أُختاك وبقي لك الدور الأهم في استمرار العائلة».

وتساءل الأب بصيغة الأمر:

«أما آن الوقت لتتزوج؟».

فلم يجرؤ السفرجل على القول إن الزواج بلا حب أشبه بعمل السخرة، واستطرد الأب قائلاً:

«دخلك من العمل وما سأتركه لك، سيدعمانك يا ولدي في بناء أسرتك».

وقال بلهجة حازمة:

«وما علينا الآن سوى اختيار الزوجة الصالحة».

وتساءل السفرجل في سره:

«اخترت دراستي لأني أحبها، وها قد حان الوقت ليتم اختيار مستقبلك. الحكومة من طرف والأب من طرف، فأين أنت من الاختيار؟».

القطار يمضي، وتستمر صورة الأهل تحوم حوله. قال الأب يخاطب الأم:

«لمعين الحق في الإشارة إلى واحد من خيارات عديدة نضعها أمامه».

فقالت الأم دون تفكير:

«ابنة أخي معلمة، ولا تنسَ أنها أجمل أخواتها».

فعلق الأب بقوله:

«حسن، هذا واحد من الخيارات، وماذا بعد؟».

فهتفت الأم بغضب:

«وهل يدور في ذهنك شيء أفضل لمعين؟».

وتطلع إلى ابنه وهو يتكلم موجهاً الحديث إلى زوجته:

«لن أعلق على الصبية كبرى أبناء أخيك، وهي لا غبار عليها، ولكن ابننا يستحق أكثر من فرصة للاختيار كما يريد. وهذا يستوجب منا المزيد من البحث والتقصي، وسيكون له الرأي الأخير».

وكان الأب يبدو عاقلاً بالرغم من نزعة التحكم في أسرته كشيخ عشيرة. وكان على السفرجل أن يستسلم.

الأم، العمة، والأختان. وهكذا بات فريق العمل ناشطاً في البحث،

وظهرت في العائلة مجسات تمتد في كل مكان بحثاً عن عروس المستقبل. وكانت القائمة، التي عرضت في جلسة الحكم، تتكون من خمسة أسماء تشتتت حولها الأصوات فلم تلق الإجماع المطلوب. استبعدت الأولى لأنها من أسرة فقيرة، وكانت الثانية بدينة بالرغم من جمال وجهها، وأما الثالثة فكانت تقارب الثلاثين من العمر، واكتشف أن الرابعة قد طلقت بعد شهر من زواجها، واستبعدت الأخيرة لحجم ثدييها غير المألوف.

وتنعقد إحدى الجلسات التي تعرض فيها صورة فتاة على السفرجل، فيتوقف عند الملامح الصلبة في الوجه الجميل، ويثير توقفه عند الصورة لفترة طويلة اهتمام لجنة البحث. ولم يمانع الخاطب رؤية المرشحة له بعد أن عددت اللجنة مزايا الفتاة التي تعلقت بأسرتها المقبولة اجتماعياً وبدخلها من وظيفة محترمة في إدارة مالية. وكان الأكثر جذباً له في ما قالته العمة عن المرشحة فاطمة بأنها رفضت أكثر من متقدم لها وكان فيهم الطبيب والضابط الأمني المرموق وتاجر العملة الصعبة.

واستقبلت دار المرشحة أول لقاء بين الأسرتين. كان الوقار يخيم على أطراف الجلسة الهادئة، فلبث الجميع في مقاعدهم تتحرك فيهم العيون، تتفحص وتراقب وتبدي التلهف لسماع كلمة يفتتح أحدهم الحديث بها. وسجلت فاطمة بعد احتساء القهوة لحظة الانطلاق الأولى. قالت:

«ليت الأستاذ معين يحدثنا عن عمله».

وفوجئ الجميع بفاطمة، وهي تكسر طوق الصمت بشجاعة، بينما الخاطب يتابع كل حركة أو قول نطقت به وتزداد عنده الثقة بأن هذه المرأة هي الأفضل لبناء أسرة مشتركة. إلا أنه وجد نفسه يرد

بسؤال معاكس:

«هل تعتقدين يا آنسة فاطمة أن نجاح المرأة في الأعمال المالية يعني نجاحها في أمور أخرى؟».

وكان التاريخ الذي حدد لإعلان القبول أو الرفض من عائلة فاطمة، قد توافق مع مساء اليوم الذي قامت فيه الحرب مع إسرائيل. هتف الأب قلقاً:

«هو ذا الشؤم الذي لم نكن نحسب له يوماً».

وتوجهت الأسرة إلى دار فاطمة تكبل خطواتها أخبار اليوم الأول بالرغم من أن الإذاعة بشرت بالنصر. وجاءت الموافقة في سياق الأحاديث التي دارت بين الفريقين حتى وقت متأخر، وكأن خطوة الارتباط الأولى قد تعلقت بأنباء الطائرات الإسرائيلية المتساقطة كالذباب، واقترنت سعادة الإعلان عن أسرة جديدة قادمة إلى الوجود بترحيب الطرفين بما سيحمله الغد من نهاية محتملة لدولة إسرائيل.

ومرت الأيام الخمسة التالية من الحرب الخاطفة مصطحبة بخطوات الاستعداد للزواج القريب، ولكنها كانت في كل ساعة تمر، تعمق من شعور الخيبة الذي أصاب الناس. وفي المؤسسة ومجالس الكلام ابتدأ الحوار حول الكلمة المناسبة لما حدث في تلك الحرب، هزيمة أم نكسة! تاريخ مهزوم أم أنها الجغرافيا المستسلمة! وسمع السفرجل رجلاً يقول:

«مأساة حزيران تلك كانت المقدمة المنطقية لأحداث قادمة نعجز الآن عن تسمية لها».

فقال لنفسه آنذاك:

«ما الذي يخبئه الزمن لنا؟».

وابتدأ التعاطف بين الخطيبين ينمو مع الاستماع المشترك لأغاني أسمهان وأم كلثوم وعبد الوهاب، وكانت فاطمة تساند في انتقاء تصاميم الأثاث وتبدو في ذلك كأم شابة تأخذ بيد ابنها الصغير. وتمسك السفرجل بحلم السعادة الزوجية القادمة، وكأنه المرحلة الفاصلة بين تاريخين.

13

دبت الحركة في العربة مع استيقاظ عدد من النيام، وتوجه بعض الركاب نحو عربة البوفيه، وجعل السفرجل يطمئن على الجعبة من فوقه، وما لبث أن أخرج من جيبه كتاباً صغيراً وضعه على الطاولة أمامه وكأنه يدخره لقراءة قادمة. جعل يعاين توقف عقارب الساعة ويحدق في سكونها متوقعاً أن تعود إلى الحركة فجأة. وعاد إليه الأصحاب في المقهى وخيل إليه أنهم يشاركونه العربة، فكان الأربعة يتحادثون ويصمتون، يضحكون ويعبسون، يتخاصمون في حوار أو سكون، وبدت له أن الألفة تتعمق في ما بينهم رغم كل شيء. أهو شوق أم عادة. سأل الوزير بغتة:

«هل يمكن الزمن أن يعود؟».

وسمع السفرجل ضحكته المجلجلة وهو يردد:

«وهل ذهب أصلاً، وهل ذهب، وهل...؟».

فتيقظت حواس السفرجل وقد رجع بمقعده إلى الوراء يتمدد عليه. كان يتساءل:

«هل يمكن ساعة ركوب القطار أن تعود؟».

وتمتم متململاً في استسلامه:

«لو حدث ذلك لكنا نضيع الوقت سدى، ولما كان هناك معنى لدوران عجلات القطار إلى الأمام».

وقال السفرجل:

«وسيكون من المحزن أن تتوقف العجلات عن السير».

قالت فاطمة له بعد أن ساد الهدوء الذي ورث ضجيج الفرح:

«ما هو شعورك الآن يا معين؟».

فدار السفرجل في غرفة النوم كدرويش يسبّح بحمد اللحظات التي تمر به:

«السعادة، السعادة».

وظهرت العروس في ثوب النوم المطرز بالدانتيلا كملاك خرج من ظلام بنوره الذي يشع برطوبة منعشة، وهمس السفرجل بصوت أطرب فاطمة:

«تبدين كذلك البناء الذي أطلقوا عليه اسم (تاج محل). وأنا أقول فاطمة تشبه نفسها».

تساءلت فاطمة وهي تندس في أحشاء الفراش:

«لِمَ تاج محل من دون غيره؟».

فقال السفرجل بحماسة من يقرّ بحقيقة لا نقاش فيها:

«أجمل عمارات الحب في العالم. المرمر يشع بالموسيقى، وصلابة تكوينه تعلّم الناس الرقة والعذوبة».

فهتفت فاطمة ترسل بنظرات انتظار ملح:

«أليس ضريحاً مثوى الزوجة الحبيبة!».

فقال السفرجل وهو يندس بقرب زوجته:

«أي عمل خارق يكون عندما يساوي المعمار بين الخلود والجمال؟ أن يعطي للموت قيمة الحياة التي لا تموت».

وتفوقت ليلة الحب الأولى بعذوبتها على كل أغاني الحب التي ملأت السمع والروح، وسمحت للآمال بأن تحتل ساحة الرؤية المتطلعة إلى مستقبل الأيام. وكانت ليلة الزواج أشبه بجائزة كبرى حصل عليها معمار قبل أن يتجسد تصميمه على أرض الوجود.

وخيل للسفرجل وهو يستعرض من النافذة رؤوس التلال المتعاقبة، أن تكويناً صخرياً قد نبت من إحدى تلك التلال كخرائب متداعية لمعبد قديم تدل على آثار سرق الزمن منها وميض الإبداع السابق، فتساءل إن كان ما مر على بصره يتعلق بخداع النظر وأنه سراب من نوع غير معروف، فعاد إلى نفسه يقلب الموقف الذي سيكون عليه وهو يحاور مسؤولين في الوزارة. قد يقول أحدهم:

«أنت خارج الخدمة وحالتك كمتقاعد لا تسمح بإبداء رأي».

وقد يقول آخر:

«ما نفع آرائك في أبنية المدارس المقامة، وقد امتلأت بالطلاب

وانتشرت في ربوع البلاد؟».

وقد يعلق واحد من المسؤولين القدامى:

«أوتريدنا أن نهدم ما بنيناه استجابة لنزواتك؟»،

وسيهتف هو بشجاعة:

«خير لنا أن نصلح الخطأ من أن نسبّح بحمد الواقع»،

وقد يأتيه صوت:

«وهل تتوقع منا أن نسبّح بحمد أوهامك المتهالكة؟».

وكان القطار يستمر في التقدم.

أطلت الرضيعة خديجة على الحياة، وخرجت من المشفى مقمطة بمحبة وحنان يليق بأميرة احتلت لتوها عرش الأسرة الصغيرة. زوجان وابنة، أم مشرقة وفتاة أرقّ من البرعم وصدر أب يحتويهما. وقال السفرجل بعد سنة:

«ألم أكن لأتصور أني سأكون كجملة بين قوسين واحد يسمى فاطمة والثاني خديجة».

فسمعت ضحكة زوجته وهي تعكس انسجاماً رقيقاً مع عالم الأسرة يختلف عن صرامة ساعاتها في عملها الوظيفي. وكأنما ذهاب خديجة إلى دار الحضانة كان إيذاناً للطبيعة أن تفكر بمولود جديد، فكان على الأسرة أن تستعد لاستقباله.

وكان مدير جديد قد عُين للمؤسسة، وبدا أن الحظ جعل يبتسم للسفرجل، فما إن مضت أيام حتى استدعي إلى الإدارة الجديدة،

وقال المدير في استقباله الودود له:

«لن تعرفني حتماً، فقد كنت تسبقني في الكلية بسنتين، ولكن أخبارك شاعت بين الطلاب، لذا فأنا سعيد، فها نحن نجتمع من جديد».

ثم أضاف وهو يقدم له مع القهوة سيجارة أميركية لم يعتدها:

«كنت أتمنى أن أراك البارحة في اجتماع الفرقة الحزبية»،

فقال السفرجل:

«لست عضواً في الحزب يا سيدي».

هتف المدير كمن وجد مدخلاً للحديث الجاد:

«وهذا ما أردت أن نتحدث عنه كزملاء في العمل. لماذا؟ لماذا لست عضواً؟».

ولم يتح المدير الشاب فرصة الإجابة للسفرجل، قال:

«لماذا لا تكون، لأن مهندساً في أهميتك يستحق أن تفتح أمامه طرق النجاح».

فتساءل السفرجل ببراءة:

«وكيف تنفتح تلك الطرق؟».

وابتسم المدير بطمأنينة تحمل الجواب الشافي:

«أن تكون عضواً في الحزب، لا أن تبقى بعيداً عنه بأي حال من الأحوال».

وهتف بإخلاص يتابع قوله:

«افعل ذلك من أجل مستقبلك، وأعدك بأني سأمهِّد لك الطريق».

تساءل السفرجل:

«وما دخل العمل الهندسي بالعضوية؟».

«كونك عضواً سيمنحك ثقة المسؤولين التي ستدعم عملك كمهندس، وهكذا يكون التقدم».

وقال السفرجل لنفسه:

«أبحث عن ثقتي بنفسي. أريد أن أتحقق من أني معمار حقيقي دون دعم من أحد».

وتساءل المدير:

«هل أسمع شيئاً يقوله صمتك يا أستاذ معين؟»

فلم يجب السفرجل بكلمة.

واستقبلت الطفلة خديجة أختها القادمة إلى الحياة وهي تقتحم غرفتها بقبلات حميمة تخلق شكاً في علاقة المحبة بالغيرة، وكاد العناق أحياناً أن يكون قتالاً، لكن غريزة عائشة الجميلة تظهر في الدفاع عن نفسها ببكاء صارخ يستدعي الوالدين لفك الارتباط. وابتدأت فتنة عائشة مبكراً وهي تحاول أن تسحب البساط من تحت قدمي خديجة، إلا أن الساحرتين الصغيرتين استطاعتا توشيح البيت بسعادة تشبه اكتشاف مقاييس جديدة لجمال غير معروف من قبل.

القطار يمضي في طريقه، والأيام تمضي. ولم يشهد السفرجل حرارة

في التهاني التي قدمها له زملاء المكتب وهو يعلن نبأ قدوم طفلة ثالثة له، وقد اختلط عليه المشهد في ما إذا كانت أخبار حرب تشرين التي اشتعلت دون مقدمات هي السبب في برودة التهاني أو أن هناك موقفاً معادياً من إنجاب البنات. أهو إشفاق على الأسرة التي لا تأتي بالصبيان، أم أنه ترقب لحرب ستسفر عن نصر أكيد؟ وعادت الأم من المشفى تحمل صفية التي ملأت نعومتها صدر السفرجل بعاطفة جديدة، وقد أصبح أبو البنات رأس أسرة الأنوثة التي لا يعادلها شيء في الجمال.

هتفت فاطمة كقائد في فرقة من أتباعها:

«بات المشوار أمامنا أطول مما كنا نتصور يا معين، ولكننا سنمضي فيه، وعلينا أن نبذل جهداً أكبر لرعاية فراخنا الصغيرة لكي تقدر على التحليق في سماء مستقبل محفوف بالمخاطر».

وتساءل السفرجل:

«وضعنا أساسات لعمارات، وما علينا إلا استكمال البناء مهما كلف ذلك من جهد».

14

يتقدم الحاج جليل من عمق العربة، أمين صندوق مؤسسة الأبنية المدرسية، يتقدم بوقاره الذي اشتهر به. وكان السفرجل يقابله مرة في أول الشهر ليتسلم راتبه ويمضي. لحية تسلل إليها الشيب وعينان غائرتان، إلا أن الوداعة خففت من ذهولهما الدائم. وبات لقب الحاج مرتبطاً به، فكان احترام الجميع له يؤكد على أنه جليل حقاً. قال للسفرجل بعد سنوات من اللقاء الدوري، وكانا وحيدين في غرفة المحاسبة:

«أنت الوحيد من دون الجميع الذي اخترته يا أستاذ معين لقراءة هذا الكتاب»

ودفع بالكتاب مع مغلف النقود الشهرية، وقال مستكملاً:

«ستجد أن المكافأة الحقيقية لعملنا ليست في الأجر المادي، بل هي في طاعة الله».

قضى السفرجل ليلته في قراءة كتاب (جند الله) غير قادر على التوقف عن متابعة صفحاته لا تفوته كلمة من سطوره. وإذا ما اقترب الفجر طوى الكتاب وعاد إلى سريره متعباً كخارج من معركة يتطاير منها الغبار كالريح العاصفة. قال لنفسه متسائلاً وهو يضع رأسه على المخدة:

«هل يمكن الكلمات أن تتسبب في رعب لقارئها. ما الذي يجعل كاتباً يزج باسم الله وعظمة وجوده في عمليات تصفية وانتقام. لم ترفض جماعة ماعداها، فلا يكون من سبيل للحوار سوى القتل؟».

وتقلب السفرجل في فراشه تهاجمه الأسئلة:

«لِمَ اختارني الحاج جليل، الذي أحمل له الاحترام، لقراءة هذا الكتاب؟».

وتحدث مع أمين الصندوق في أول زيارة خارج البرنامج الشهري:

«أعيد إليك الكتاب. أقول لك يا حاج إني لا أريد لروحي أن تقع في تشويش لا أطيقه».

واشتعلت المدينة بالفوضى والرصاص والظلام، وبدت وكأنها تقوم بتدريبات قاسية استعداداً لقيام حرب أهلية تقف على الأبواب. مظاهرات وحرائق وجماعات متفرقة تنشر الذعر في البلد. وتوافد الجنود مدججين ومجنزرين يتصبب العرق والغضب من وجوههم، فعاد الفراغ ليشاركهم في احتلال الأحياء والشوارع. وأدرك السفرجل في خضم الأحداث المجنونة مدى خطورة الكتاب الذي قرأه في ليلة الرعب، وتساءل إن كانت الجماعات التي فجرت القتال والفوضى قد حفظت صفحات الكتاب عن ظهر قلب، وهل يمكنها أن تقاوم برجالها المتحصنين في البيوت القديمة والحارات

الضيقة أو الجوامع ذلك السيل العاصف من القوى الحكومية الهادرة بأسلحتها؟

وتساءل السفرجل:

«ما الذي سيكون عليه البلد إذا ما انتصرت تلك الجماعات بموقفها الضيق الرؤية من مجتمع تتجاور فيه المساجد والكنائس؟».

وألح عليه الخوف في تساؤله:

«وما الذي يحدث لك يا معين السفرجل في بحثك عن تحقيق حلمك في عمائر تتجلى فيها ثقافات مختلفة ومتراكمة ومتوالدة من واقع الناس وحاجتهم إلى حياة مدنية تلبي رغباتهم في التعليم وقطف ثمار الفن ومتعه المختلفة».

وقال السفرجل في تلك الأيام العصيبة:

«طالما تاقت روحي إلى المساهمة في بناء معابد تضم بين جدرانها فضاءات التواصل مع الغيب».

وكان الحاج جليل قد اختفى من المؤسسة في الأيام الأولى للفوضى التي لن تنسى، كما تداول العاملون شائعات تقول إن المدير الشاب قد أعلن تنكره للحزب في (جامع التوبة) الذي سيطرت عليه الجماعة المناوئة للحكم، وقد انضم إلى عددٍ من رفاقه طلبوا الغفران من الشيخ الذي كان يعلن الانتصار القادم على الكفر لتتحقق لهم (دار الإسلام).

وأحاطت بالسفرجل في مقعده وشوشة الحاج جليل، وكانت نافذة القطار تسرق الأراضي الجرداء بسرعة ثابتة وهو يصغي إلى كلمات الحاج:

«كان عليك أن تحتفظ بالكتاب، تقرأ فيه مرة بعد مرة، فقد يمنّ الله عليك بنعمة الهداية».

تمتم السفرجل:

«لم أخبر أحداً عن الكتاب، وأقسم على ذلك».

وكان السفرجل قد تعرض في تلك الأيام إلى محاولة اعتداء في ظلام العمارة، وقد هجم عليه اثنان بالعصي، ووجدت في جيبه رسالة تقول إن روح الشيخ جليل لن ترتاح في سمائها إلا بذهاب روحك يا سفرجل إلى أدنى درك من جهنم. وكانت معجزة خروج السفرجل من المشفى سالماً قد زادته يقيناً من أن دعاء الزوجة والفتيات الصغيرات هو الذي شفع له كي يبقى على قيد الحياة، وأن أسرته هي التي تستحق أن يعيش من أجلها. وها هو يستعيد تلك الحادثة الغريبة، فلا يجد لها تفسيراً سوى الاتهام الباطل من الحاج جليل. وعندما نظر حواليه لم يجد للرجل أثراً.

واستمرت عجلات القطار تحتك بسمعه كمنشار طيناً يتشابك مع وشوشة الحاج جليل التي كانت تغيب بهدوء حتى اختفت. تساءل السفرجل:

«هل يليق برجلٍ ادعى الوقار أن يبث أكذوبة كادت أن تتسبب بقتلي؟»

فسمعه يقول من أعماق العربة:

«لقد راهنا عليك يا سفرجل، لكنك لم تكن بمستوى الثقة التي منحتك إياها».

وقال السفرجل:

«ولكن كتابك لم يثر في النفس سوى الرهبة والخوف!».

فجاءه صوت الحاج جليل:

«الرهبة هي أولى الخطوات في تطهير الروح»،

فهتف السفرجل بصوت مختنق:

«اعرف أن المحبة هي التي تطهر الروح»

فسمع صوت الحاج جليل يهجم كسيل في مجرى ضيق:

«المحبة! وتستخدم كلاماً ليس من أقوالنا؟».

جعل السفرجل يسترجع كلاماً علق بعقله منذ زمن:

«أؤمن بالنور يأتي بالمحبة، والظلمة تستحضر الرهبة».

وكان صوت الحاج جليل يضعف في تراجع متدرج:

«لن تكون هداية للإنسان.. إلا بالرهبة.. تملأ.. القلب.. الضعيف.. فيستحيل إلى.. قوة.. الإيمان.. قو.. قوة.. الإ.. يما.. ن.. ن..».

أراد السفرجل أن يطلب من جيران الطرف الآخر من العربة أن يسدلوا الستائر التي جعلت من أشعة الشمس تنقل ذكرى الصيف إلى مقعده، وكان بهرها يغمر السفرجل بالضيق، إلا أنه اكتشف أن الكهلين قرب النافذة يغطان في نوم عميق، فلزم الصمت واختار الانتقال إلى عربة البوفيه. وكانت قد اكتظت بالمسافرين والدخان والضجيج. وجد لنفسه مقعداً وحيداً احتله، وكانت النسوة اللواتي لم تعترض واحدة منهن على مشاركته في الطاولة يغرقن في حديث، فلبث غريباً بينهن وهو يتنقل بعينيه وأذنيه في أرجاء العربة.

رجلان خلفه ملأت طاولتهما كؤوس القهوة، وضج ركن بعيد بصوت الترانزيستور يحيط به مربع من شباب اختلطت ضحكاتهم بإيقاع أغنيات قصيرة. وشغل موظفو القطار ركناً يتحاورون فيه حول أوراق رسمية. وكانت بقية الموائد قد شغلت جميعها بركاب القطار، فأحس السفرجل بأن السفر غربة حقيقية هرب منها إلى مراقبة دخان سيجارته، وهكذا ثبت له أن إقامة التواصل مع ماضي الأيام هو الوقود الذي يمضي بقطاره في رحلته. وتفحص بالغريزة ساعة يده لمعرفة الزمن، فلم يكن هناك أي تغير في سكون عقاربها، فأغمض محاولاً أن يدفع عقارب روحه إلى الحركة لاجتذاب الماضي، فتراكضت أسرته إلى ساحة رؤيته تقود فاطمة أفرادها من البنات والأحفاد والأصهار، وكانت صرامة فاطمة تنشط في شيب شعرها وفي قوة التجاعيد التي تطوّق رقبتها التي طالما كانت تثيره بنعومتها الحريرية.

15

رحل زوج عائشة الرقيقة كزهرة الصبار، فخيم الحزن على دار المحبة. وعندما انتهت طقوس العزاء في الحسكة، وعادت أسرة السفرجل إلى المدينة، كان هناك تحول واضح في سلوك فاطمة التي أعلنت فجأة التزامها بفروض الصلاة الخمسة، وبات دعاؤها شريكاً لها في معظم أوقاتها كي يحمي الله البنات وأولادهن وأن ينعم على صفية بخلفةٍ تحفظ لها زواجها الذي قد يتهدده العقم. وكان لا يمر يوم دون أن يُرافقه الاستعداد للعبادة وجلسات قراءة (دلائل الخيرات) والأدعية على إيقاع طقطقة حبات السبحة الألفية. وعندما تعود فاطمة إلى حياتها العادية من عالم الزهد، كانت في قوتها الصلبة تؤكد على ماضيها بلا تغيير. وكانت الأيام تمر فلا يبرق أي احتمال في العودة إلى النظام الذي كان سائداً لسنين طويلة.

وباتت هناك فجوة واضحة في الفراش، كخندق يفصل بين

الزوجين، فكانت لمسة من يد السفرجل لجسد فاطمة تحدث نوعاً من ردود الفعل يشير إلى انتفاء الرغبة عند الاستجابة المحتملة. واختفت ثياب النوم القديمة التي كشفت عن أجزاء فاتنة من جسد فاطمة الجميل، وأصبح الاحتشام الذي أظهرته عباءة المنزل شعاراً لمرحلة جديدة رفعته الزوجة لتزيد من عمق الخندق في سرير الزوجية.

كان العثور على تسمية دقيقة لسلوكه قد تأخر طويلاً، وها هو السفرجل يكتشف حقيقة حياته في العثور على الكلمة المناسبة المنطبقة عليها. (الخجل) كانت حروفها تلبسه وكأنها فُصلت ثوباً يناسب جسده. وكانت فترات غياب فاطمة عن الدار، والتي توزعت ما بين سفر طويل إلى مدينة عائشة وزيارات قصيرة إلى الابنتين في حلب، تشكل فرصة له يحلل فيها واقع العلاقة الزوجية من حب وتواصل، ويفكر في احتمالات اعتدالها أو عودتها إلى الماضي الذي كان يشكل فترة الحب والطمأنينة التي وازنت بين خيبة الوظيفة واليأس المتنامي في تربتها الخصبة.

كان السفرجل يقلب صفحات حياته ويتساءل:

«أهو داء الخجل قد استوطن خلايا جسده؟»

«هل انتهت وظيفة الإنجاب وحفظ النوع فما عاد للزواج نفع؟»

«أيمكن أن تكون الزوجة قد وجدت لها في تعلقها بنسلها بديلاً من العلاقة الزوجية، فوضعت رفقة العمر في خزانة الذكريات؟»

واستبعد تساؤلاته من صفحة تفكيره، إذ إن فاطمة في فترات متباعدة كانت تستسلم لمداعباته الخجولة كواجب وضعت له برنامجاً محسوباً بتوقيت. وبقي التعاطف بالرغم من كل جفاف،

وكان السفرجل يراهن دوماً على شيء ما سيحدث فجأة يعيد إلى الزواج حرارته السابقة.

هل ينسى؟ من يجرؤ على النكران؟

لقد حدث يوم أحيل السفرجل على التقاعد أن عاد مساء ليفاجأ بمائدة عشاء أعدتها فاطمة وكأن حفلة ستقام إحياء لمناسبة بالغة الأهمية. قالت فاطمة:

«نحتفل اليوم بعيد تحررك من عبودية الوظيفة».

وكان استقبالها له كفتاة عاشقة طال انتظارها للحبيب الغائب في سفر طويل، فأصيب بذهول لطبيعة الاستقبال الغريبة، وتساءل إن كان بلوغه الستين كان حقاً مدخلاً لبلوغه الحرية.

قالت فاطمة وهي تدعوه إلى المائدة:

«أصبح الآن بيتنا مقراً للمتقاعدين».

وأشعلت شمعتين توهج بنورهما الطعام المتنوع. وأمضيا زمناً في تناول عشاء تاريخي، موسيقى مرافقة وأحاديث دارت بين طرفين يباركان شراكة ناجحة. وكان السفرجل يتساءل في سره:

«أهو الوقت الذي كنت أراهن عليه في التحول المفاجئ؟».

واشتعل الفراش مضيئاً ظلمة ليلة من لقاء حبيبين، لن يتكرر بعد ذلك أبداً.

ثم عاد الجفاف ينتشر من جديد في غرفة النوم، فتساءل:

«هل كانت فاطمة تقدم العزاء له؟ وها هو وقت العزاء قد انقضى».

ولم يكن له غير نفسه يستفسرها عن إجابة لكل ما يحدث وما يجري من حوله.

«تعاسة مكتوبة تتخللها لحظات نادرة من المتعة، أو أنها السعادة، ثمرة حلوة تضمر سريعاً وتعجز عن مقاومة الزمن، فتتأهب للسقوط في أي لحظة».

ويمضي القطار في رحلته منزلقاً بانتظام على سكته التي شقت طريقاً له في الأرض من بساتين ومن بلدات مأهولة أو مناطق مهجورة وأراض جرداء، فكأن القطار مجس مكوكي يعاين أنواع الحياة القائمة. وتساءل السفرجل وهو يمضي عائداً إلى مقعده مغادراً عربة البوفيه:

«ما الذي يحدث لنا؟ تنطلق حياتنا بيسر من بساتين الآمال وتمضي في طريقها تفرش الطمأنينة، إلا أن حفراً تظهر هنا وهناك تعرقل المسيرة، ولكنها لا تلبث أن تتجاوزها بحكمة يحكمها شعور بأن الهدف سيكون العودة إلى البستان، ولكن المصاعب تزداد فإذا هي تشرف على مساحات من القلق والخوف والتعاسة. ويتحول حلم العودة إلى البستان إلى وهم كسراب مخادع، فتتحول الأيام إلى صراع مستمر بين الأمل والانكسار كما الحال في الحوار الأزلي بين الحلم والوهم».

وعندما استقر في مقعده تنبه إلى الكتاب فأخذه إليه وهو يأمل من القراءة أن يوقف سيل الأفكار التي تسببت في انقباض روحه. جعل يتأكد من اسم الكتاب ومؤلفه، فدهمته صورة اللحظات التي عثر فيها على الكتاب، وكان يمر البارحة بساحة سعد الله فتوقف عند بائع يعرض كتباً على السور الحجري لحوض أزهار ذابلة. تأمل الأغلفة فكانت معظم العناوين لها علاقة بالكتب التراثية والدينية

وبمؤلفات عن تفسير الأحلام وترجمات لها علاقة بالسحر والخوارق، وعندما وقع بصره على (الرحلة) وجد يده تمتد لالتقاط الكتاب الصغير الذي يسمح للجيب بأن يحتويه. ولم يجادل في ثمنه متابعاً سيره وهو يفكر في رحلة القطار التي سيساعد الكتاب على تمضية جانب من وقتها الطويل.

من جديد عاد يقرأ اسم المؤلف الذي لم يسبق له أن سمع به.

«م. الفرحزين»

وجعل يمعن النظر في الاسم متهجياً حروفه.

«أهو اسم تخفّى وراءه صاحبه خشية الإفصاح عن نفسه؟ إذا كان الأمر كذلك فالكتاب لا بد أنه يحمل إثارة مسلية!».

وابتدأ السفرجل بقراءة الصفحة الأولى بهمس مسموع تداخل مع لهاث عجلات القطار:

«سأحاول في الحديث عن رحلتي أن أبتعد عن سحر المخيلة التي يقع الكتّاب عادة في فخها، وسألجأ ما استطعت إلى أن أرتبط بالحقائق والواقع الذي يحكمنا. وسأسمح لنفسي بأن نتساءل جميعاً أهي رحلة المجهول؟ أم رحلة البحث عن السعادة؟ أهي رحلة البحث عن الذات؟ أهي رحلة التنقيب عن أجوبة في كومة التساؤل؟».

وقلب السفرجل على صفحة يقول فيها الكتاب:

«الرحلة هي الدليل على أن الروح ما زالت تستوطن الجسد الضعيف لتؤكد على أن الحياة مستمرة. أنا أحيا إذن فالرحلة مستمرة».

وأغلق السفرجل الكتاب وهو يتابع مسيرة الأراضي عبر النافذة التي

تزايد التصاق الغبار بها، فبات هلاماً يجعل الرؤية من زجاجها صعباً، فعاد إلى الكتاب يقرأ من جديد في صفحته الأولى، يريد أن يستوعب أكثر أفكار المؤلف. وانتقل إلى مقطع يقول:

«ولفهم الرحلة يجب أن نحدد نقطتين هما بلا ريب بداية الانطلاق ولحظة النهاية. ولا بد من خط يربط بين النقطتين، وهو يطول أو يقصر، ولكن لا بد منه لمعرفة زمن الرحلة وطبيعتها. أهو خط هندسي مستقيم أم أنه متعرج كالثعبان، أم أنه منحنٍ في مساره كالقوس الذي تنطلق منه السهام؟ أهو شبيه النفق الذي يخترق الأعماق، أم هو كممر بين الجبال الشاهقة؟ ومهما كان الأمر فالرحلة مستمرة، أفهل يمكن تبسيط الصورة لتكون مدخلاً إلى فهم حقيقة الرحلة فتكون نقطة البداية هي ذلك الجوف الذي يتخلق فيه الكائن وقد سمي بالرحم اصطلاحاً، وكأن رحم المرأة هي الرحمة التي ترعى النطفة وتعدّها للنمو لتصبح فيها قدرة الحياة متجلية في سرها العظيم. وهل نقطة النهاية هي ذلك الثقب الواسع الذي يشبه تجويفاً في التراب يقبع في العتمة بانتظار وافد جديد كي تعدّه وجبة لديدان الأرض التي لا تشبع؟».

وكان السفرجل يقرأ مستغرقاً:

«والرحلة عبر الخط الممتد بين النقطتين تطول أو تقصر، لتؤكد دوماً أن طبيعة الرحلة ليست بعيدة عن إدراك البشر، إلا أنها كثيراً ما تقابل بالنسيان والتجاهل».

16

توقف السفرجل عن القراءة، وطوى كتابه ممسكاً به بيمينه وأسند رأسه بذراعه اليسرى وقد أحس بزحف الفراغ عليه، وعندما عاد إلى الكتاب يريد أن يستعيد ما قرأه، وجد أن الخواء المتمدد يبطء لا يساعد على وضوح كلماته فأغلق عليه الغلاف.

وانتصب السفرجل واقفاً عندما همدت حركة القطار. وسمعت همهمات في العربة ما لبثت بعد لحظات أن كشفت عن قلق الركاب، فمن قائل إن التوقف كان لعطل طارئ، وقائل إن الوقوف ضروري في محطة تسبق نقطة الوصول. أصوات، أصوات، والنافذة لا تشي بمنطقة سكون القطار عندها. شيخ كان نائماً فاستيقظ هاتفاً:

«لا بد أننا وصلنا بعون الله»

وصاح الشاب يحاول أن يتطلع من النافذة:

«ما زال هناك ساعة لوصولنا، ولا أشاهد محطة ما هنا»

وقال الرجل مستنكراً:

«أهذا قطار لا يتوقف كما يدّعون؟»

وهتف شاب في مقتبل العمر وهو يتحرك في الممر بقلق ملحوظ:

«ألا يراعون مواعيد الناس وارتباطاتهم؟».

وأبكت الأصوات صبياً صغيراً لحقت بصراخه شكوى فتاة تعلقت بأمها. وتوجه السفرجل بعد فترة من الزمن إلى عربة البوفيه بحثاً عن موظفي القطار، إلا أنه لم يشاهد أحداً منهم فيها فأطل من النافذة فشاهد ثلاثة منهم يقفون قلقين خارج القطار، فقرر النزول إليهم.

وكان عدد من الركاب قد فعل مثله، فاقترب السفرجل من موظف عاد لتوه من المقدمة حيث عربة القيادة:

«ما الذي حدث من فضلك؟ هل هناك من مشكلة؟»

فأنعم الرجل عليه بجواب يشبه وجهه المنقبض:

«عطل في المحرك»

«ومتى تتوقعون أن يتابع القطار رحلته؟»

لاحق السفرجل بسؤاله هذا الرجل الذي يتابع خطواته وهو يردد:

«الأعطال بيد الله»

وعلق السفرجل وهو يتوقف عن ملاحقته:

«والإصلاح بيد من؟».

وعاد ليسأل واحداً من الموظفين الثلاثة المتجمعين على حوار لم يسمع منه شيئاً:

«أليس من جواب على تساؤلنا يا أخ؟»

فكان الرد مبتسراً:

«وما هو السؤال حتى نتحدث عن جواب؟»

فقال السفرجل:

«إلى متى يمكن أن يطول توقف القطار؟»

فأجاب الرجل بابتسامة الواثق:

«ساعة، ساعتان، نصف يوم، وهذا يتوقف أولاً على قدوم المهندسين».

تردد السفرجل في العودة إلى العربة وهو يهم بالصعود إليها. ولبث واقفاً عند السلم ويفكر:

«أليس الأفضل أن يكون الانتظار في العراء!».

وارتد إلى الوراء يمشي باتجاه الفضاء الذي تمدد أمام عينيه. وكانت غيمة عابرة تظلّل تلاً بدا واضحاً له، فسار إليه. عاين التل عن بعد فظهرت له أشباح صغيرة تنمو على سفحه قدّر أنها أعشاب برية أخذت لها مكاناً بين صخور صغيرة. وتسارعت خطواته طلباً لظل يؤمنه التل وسط مساحة شاسعة خيمت عليها أشعة الشمس المائلة إلى حرارة في غير وقتها. وكان الطريق إلى التل يستدعي من

السفرجل حرصاً في وضع قدميه على مواقع بين الحصى والأحجار المتناثرة تحاشياً لصعوبات في الطريق الذي يطول كلما ظن أنه يقترب.

جعل يفكر أثناء سيره في كتاب (الرحلة)، من هو ميم الفرحزين؟ لو أن الاسم حقيقي لكان مفهوماً، فالأسماء الغريبة بالرغم من عجمتها تدل على معنى ما أو تشير إلى دلالة معروفة. من هو ميم؟ أهو محمد أم محمود أم ميشيل أم ممو؟ وابتسم السفرجل وهو يحادث نفسه:

«أيمكن أن يكون معين؟»

وماذا تعني الكنية (الفرحزين)؟، ألها علاقة بفئة اجتماعية صغيرة؟ أم أنها صفة مستعارة يتخفى وراءها المؤلف؟ وهتف السفرجل فجأة:

«أتكون نحتاً لأكثر من كلمة؟»

(الفرحـ) من فرح، والمقطع الآخر (زين)، وهذا يعني أن الفرح زين أي الحالة الجيدة من السرور. إلا أن السفرجل قال مفكراً:

«يجب لطريقة النحت أن تكون أكثر عقلانية».

(فرح) من فرحان و(زين) من حزين، فيكون النحت هكذا: (فرحزين)، وهتف السفرجل بصوت ردده العراء من حوله:

«هو ذا الصواب، فالمؤلف اشتق اسمه من متناقضين جمعا في كلمة واحدة، كما هو الحال في حياتنا القائمة التي جمعت النقائض ومضت في رحلتها».

يمضي السفرجل في طريقه إلى التل. والخط هو الطريق الذي يمتد

بين نقطتين، متقابلتين كانتا أو متناظرتين ولربما متناقضتين، وقد تحدث الفرحزين عنه وكأنه قد تأثر بالرسوم الهندسية، فالخطوط هي الأساس الذي تتجلى على أساسه أشكال الطبيعة وكذلك نظم الحياة. وهي التي كذلك وضعت قاعدة العمائر لتضمن لها التوازن والتناسق الجميل، فتبدو العمائر وكأنها تولد من رحم الطبيعة في تناغم يقوم بين صنع الخالق وجهود الإنسان في البناء.

وكان قد ابتدأ بتسلق سفح التل في مسيرة متعرجة خففت من مشقة الصعود، وكذلك كانت هناك متعة رافقت خطوات السفرجل وهو يراقب الحشائش المتناثرة والثقوب المتباعدة لبيوت حيوانات صغيرة تعيش فيها وقد تكون مثواها الأخير، أفتكون تلك الجحور تمثل أقصر الخطوط التي تمتد ما بين الولادة والموت؟ وتساءل السفرجل وهو يضع خطوته الأخيرة على السطح:

«وماذا عن الخط الذي تمشي عليه؟».

وقف على قمة التل. كمكتشف لفضاء جديد من حوله جعل يتقصى حدوده التي بدت أنها بلا نهاية. عن يمين التل ظهرت عن بعد بعيد أشجار السرو صامتة في محاولة للوصول إلى السماء، وكانت في هدوئها الخالد تبدو كسرو يخفي من خلفه حديقة أو بستان، فهل هي مزرعة لجأ إلى عزلتها هاربون أو قاصدون؟ وتطلع إلى يسار التل، فلم تكن هناك سوى أرض جرداء تتمدد كخواء يلتهم رمالاً وكأنه الصحراء الأبدية لا تسمح لعشبة أن تظهر فيها، وكانت تلمع كجمر منتشر.

وعثر السفرجل على صخرة صغيرة اتخذها مجلساً له على القمة وهو يعاود اكتشاف المشهد المتباين في أطرافه المترامية. وجعل من جديد يفكر في كتاب الرحلة وفي الخط الممتد بين النقطتين. ووجد

السفرجل غصناً يابساً أمسك به ليرسم على التراب خطاً مستقيماً بين حفرتين أحدثهما بغصنه، وبات يعاين الخط الذي بدا كجرح لا ينزف على سطح التل.

«ما الذي يعنيه هذا الخط؟ أهو المعادل الهندسي للرحلة؟ ما اسم هذه الحفرة، وماذا تسمى الحفرة الثانية؟».

وطافت في ذهنه أيام الطفولة. معين يتساءل ببراءة:

«من هو الله؟ أين الله؟».

وتذكر الفتى وهو ينمو كنبتة تورق، وكان يسأل:

«لِمَ الموت؟ هل تموت أمي؟ وهل يموت أبي؟ أيموت المحافظ؟ لماذا الموت أصلاً؟».

وأجاب الشاب معين ذات يوم:

«هل وجد الموت من أجل أن يولد الحزن؟».

أسئلة. أسئلة، أصبحت كمقدمة موسيقية للحن الذي كان يرافق الخط المرسوم على التراب، فيتمايل بين الحفرتين كراقص محترف.

كان الحب يمشي الهوينى في الدرب، مر بالشاب الخجول فأخذ يده رفيقاً. وما هي إلا خطوات قطعها حتى تخلى عنه تاركاً إياه ينزف حزناً. اقتربت فاطمة ومسحت على رأسه بكف الحنان، فابتدأت الأسرة تتكون يوماً فيوماً كرأس (الملفوف) ورقة تلتصق بورقة. الزوجة، الأولاد، المحبة، الخوف، الأمل، الخيبات، نزف الروح.

تتراكض مواقف الحياة الكبرى، حلم المهنة. تحقيق الذات. أمن

البلاد، وأخرى كثيرة تنزرع أعلاماً على طرفي الطريق. الإيمان يعترضه شك، التسليم بما سيكون، أمور سياسية ترتدي أحياناً لبوس السيرك، ساحات قتال كالملاعب وهي تسمي الغالب والمغلوب، باقات اللهب تجتذب الفراشات لتحترق أو إنها تتقن فن الهرب فتنجو، طير السعد الذي يحوم محلقاً وينقض غالباً كطائر الشؤم. مواقف تتجرثم في الكيان درنات تنبض بشهوة التحكم، أحزاب وعقائد ومواويل، قوانين أرضية تختفي وراء أقنعة سماوية. أيها الخط المستقيم في أفعوانيته المتعجلة تمهل!

وجعل السفرجل يرسم بعصاه خطوطاً متعامدة على جرح الأرض فتنقسم المسافة بين الحفرتين إلى مناطق مستقلة. منطقة تمثل الطموح والأمل، وأخرى تدل على أحلام تقاوم تحولها إلى وهم، ومنطقة فازت باسم اليأس والتعاسة، وتلتها منطقة تصارع الطمأنينة مع القلق، الحب الساذج. الكره. التسامح. الحقد. الخضوع. التمرد. العزاء. الصدق...

«حروب تبدو بعيدة عنك، فإذا هي تقترب منك بدهاء روح السموم».

الغيرة. الرضى. خمرة الانتصار التي لا تسكر. بكاء مظلوم حُرم من وسيلة لكفكفة الدموع. تعصب مصاب بتصلب الشرايين. لغات ميتة تزحف على التواصل لتخفيه تحت تربة النسيان.

نظر السفرجل إلى الفضاء من حوله. تلك الحديقة البعيدة تدعوه بشعاع ترسله إلى رؤيته الحائرة. واشتعل جمر الأرض الجرداء على الطرف الآخر يزين له القدوم بوميضه الساحر. وتطلع إلى ورائه ليجد القطار ما زال في موقعه، فتساءل إن كان الوقت ما زال يسمح له كي ينحدر إلى الطرف الآخر من التل، إلا أنه انشغل

بمراقبة سرب من النمل ليتقدم أمامه بنظام دقيق وكأنه يزخرف سطح القمة أفعى. فبات قريباً من أفراد السرب الذي يدخل كهفاً، وإذا بسرب آخر يخرج من كهف مجاور. وبات في موقعه كشرطي سير ينظم حركة الذهاب والإياب، وأمسك بنملة لم تبد مقاومة، تأملها باهتمام عالم، ولكنه ما لبث أن أعادها إلى الأرض تسعى، فإذا به يكتشف أنه وضعها في الخط الخاطئ، فكأن الذاهب يصبح عائداً.

«لم تبد النملة مقاومة أو احتجاجاً بالرغم من أني غيرت مسيرتها. عجبي!».

وعادت غيمة شاردة لتظلل التل من جديد، فسرت برودة في أوصال السفرجل وهو ينظر إلى السماء يتابع حركة الغيمة المتباطئة. وكانت السماء تظهر له بحيرة زرقاء وميضها أعشاه فارتد إلى الأرض ليقبض على كومة من تراب يتحسسها ثم يذروها في الهواء فحملتها رياح خفيفة وزعت ذراتها على مساحة كبيرة. قال لنفسه:

«ألا تعادل ذرات قبضة من التراب عدد النمل في هذا السرب؟».

وتساءل:

«وهل يعادل عدد البشر ذرات تراب هذا التل؟».

وقال:

«بالرغم من أن هذا التل لا يعادل سوى حلمة ثدي هذه الأرض المحيطة بنا من كل جانب»

اتساع يتسع، وفضاء يتمدد، حروف تتطاير، وكلام صامت. ظل الغيمة ينسحب متراجعاً، وحلمة الثدي تنز حليباً لا يرى، وحصى

يتدحرج ساكناً في مواقعه. حكايات خط الحياة تنهمر على السفرجل مطراً لا يبلل شيء. وكشريط التسجيل يعود إلى الوراء فتبدو الأصوات لغة غير مفهومة. شمس أشرقت، شمس تغيب، ظلمة يمحوها ضياء ونور يبتلعه ظلام، نجوم تلمع كالإشارات على الطريق فتوقف المرور ثم تسمح بالعبور، فالنجوم تهوى التسلية أو إنها تعمل على هواها بتعسف مقبول. وتكاثرت الأعداد على سطح النظر، جاءت فرادى وجماعات، الصفر تلاحقه التسعة، والمليون يتوالد أصفاراً أخرى، معادلات يصعب حلها، أشكال أخذت هيئة المثلثات المتعالية والمربعات المترهلة والدوائر المتدحرجة، مليارات المليارات من الأعداد والحروف المتدفقة في مجرى يشبه درب التبانة تكنس من يقف أمامها، ولكنها توقف فجأة وهي ترسل أنيناً عندما تدخل في عمق زجاجة الصفر المتعالي.

اقترب يا سفرجل،

فاقترب.

إلا أنه في استجابته للصوت غير المرئي لم يتحرك من مكانه.

اقترب،

فقال أنا أفعل.

اقترب متقدماً، فأنت ما زلت في البعد غير قريب.

فاقترب سمعه دون أن يتحرك، وتفتحت مسام طاقته تساعد في استجماع النداء إليها، وتساءل حائراً:

«من أين يأتي النداء؟ أيمين التل ينادي أم يساره؟».

فخيل إليه أن جميع الأرجاء تهتف باسمه تدعوه.

سمع فجأة صوت القطار فانشدَّ إليه ليشاهد عن بعد عدداً من الركاب المنتشرين حوله يتسابقون في الصعود إليه بهلع وصلته آثاره. وتكررت دعوة القطار فكان السفرجل عاجزاً عن التقدم خطوة واحدة، وظل جامداً مع استمرار الصفير. تمنى في تلك اللحظات لو كان طيراً تحمله جناحاه ليلتحق بالمسيرة. وكان القطار ما زال بطيئاً في مشيته عندما أطلق الإنذار الأخير ليمضي مسرعاً بعد ذلك ساحباً من خلفه إيقاع العجلات التي بدأت تغيب.

عادت الدعوة بالاقتراب تتكرر، فـي القطار، وأصاخ السمع وقد تنامت الحيرة في أعماقه. أهي دعوة الحديقة البعيدة؟ أهي دعوة جمر الأرض الجرداء؟

اقتربْ،

فاقترب معين السفرجل وهو ما زال في النقطة نفسها لا يتحرك وكأنها من طين لزج لا يسمح له بمعرفة الهدف الذي يجب أن يتجه إليه.

اقتربْ،

وكان النداء كصفير قطار يخترق الروح التي كانت ترتعش في محاولة جاهدة لتلبية أمر الاقتراب.

المؤلف

من مواليد الاسكندرونة ١٩٣٥. من أسرة حلبية ويعيش في حلب التي تلقى دراسته الابتدائية والقانونية فيها. كما أن الدراسة الجامعية كانت في الاسكندرية للحصول على شهادتي بكالوريوس الزراعة ودبلوم الدراسات العليا.

كتب القصة والرواية والمسرحية والدراسات والزوايا الصحافية. ترجمت أعمال له إلى لغات عدة، وأُعدّت عن أعماله دراسات جامعية. عُرضت أعمال مسرحية له على مسارح سورية وعربية... وكتبه المطبوعة:

في القصة:

قصص، دماء في الصبح الأغبر، زمن الهجرات القصيرة، الطين، الدهشة في العيون القاسية، التقرير، موت الحلزون، الأعشاب السوداء، يا شجرة يا...، خان الورد، ما حدث لعنترة، الحياة والغربة وما إليها، حلب بورتريه بألوان معتقة (حكايات).

في الرواية:

شتاء البحر اليابس، أحضان السيدة الجميلة، أحزان الرماد، الحنظل الأليف، زهرة الصندل، حكايات الهدهد، بيت الخلد، باب الجمر، دار المتعة، ملحمة القتل الصغرى، الفتوحات، سمعت صوتاً هاتفاً، الحروف التائهة.

في المسرح:

العالم من قبل ومن بعد (مسرحيتان)، الصراط، سهرة ديموقراطية (مسرحيتان)، هذا النهر المجنون، عن قتل العصافير (مسرحيتان)، أوديب، أغنيات للمثل الوحيد (أربع مسرحيات)، أنشودة الحديقة، من يقتل الأرملة (خمس مسرحيات)، مسرحيتان للفرجة، رسالة التحقيق والتحقق (ثلاث مسرحيات) عن القدر والخطيئة (مسرحيتان)، العشاء الأخير (مسرحيتان).

دراسات وغيرها:

المتعة الأخيرة، السيف والترس، الصورة الناقصة، في الثقافة والحداثة، من الإسكندرونة إلى الإسكندرية.

جوائز ثقافية:

- الجائزة التقديرية لاتحاد الكتّاب العرب ١٩٨٩
- وسام التكريم في مهرجان القاهرة المسرحي التجريبي ١٩٩٢
- جائزة القصة العربية في القاهرة ١٩٩١
- جائزة بلدية حلب ١٩٩٦
- جائزة العويس ١٩٩٧
- وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة ٢٠٠٥



رحلة السفرجل

وليد إخلاصي

«ولم يكن التدخين المبكر من عادة مُعين السفرجل، إلا أنه وجد أن السيجارة المشتعلة قد تخفف شيئاً من الاضطراب الذي ابتدأ مع ارتمائه على مقعده المفضل أمام باب الشرفة المطل على الشارع، وقد ظهرت له العمارات المقابلة يرفرف على واجهاتها الغسيل كأنه قطع ملونة أشبه بالأعلام التي قد تكون رفعت من أجل احتفال ما. وكان يستعيد من جديد تلك الدقائق المشوشة التي مرت عليه دون إنذار كما الأحلام التي يراها كثيراً في نومه. إلا أن حياة الشارع اليومية في حركة الناس والسيارات ونداء الباعة وبريق الشمس التي تتمدد ببطء في مساحة الفضاء، كانت قد بدأت، فخرج إلى الشرفة يستطلع فضاء المدينة الذي قد يخفف عنه وطأة التشوش الذي طغى عليه مع بداية يوم آخر كهذا، فكان لبريق الضوء أثرٌ عليه».

الكوكب
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-392-5

